الفصل الثامن

غزوة بدر الكبرى

المبحث الأول

مرحلة ما قبل المعركة

بلغ المسلمين تحركُ قافلة تجارية كبيرة من الشام، تحمل أموالاً عظيمة [١] لقريش، يقودها أبو سفيان، ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلاً [٢] فأرسل الرسول ﷺ بَسْبَس بن عمرو [٣]، لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب رسول الله ﷺ أصحابه للخورج وقال لهم: «هذه عِير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله يُنْفلِكُموها» [٤]، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر، من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة. ومن المؤكد أنه حين خروجه ﷺ من المدينة لم يكن في نيته قتال، وإنما كان قصده عير قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أن جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشية كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليها المشركون ظلماً وعدواناً [٥].

كلّف رسول الله ﷺ عبد الله بن أم مكتوم بالصلاة بالناس في المدينة، عند خروجه إلى بدر، ثم أعاد أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة، وعيّنه أميراً عليها [٦].

أرسل النبي ﷺ اثنين من أصحابه [٧] إلى بدر طليعةً للتعرف على أخبار القافلة، فرجعا إليه

---

(١) قُدرت قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي ١٥٠ ألف دينار. انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٨٦).

(٢) جوامع السيرة لابن حزم ص (١٠٧).

(٣) ورد الاسم في صحيح مسلم بصيغة التأنيث مصحَّفاً إلى بسبسة وصححه ابن حجر.

(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٦١) بسند صحيح إلى ابن عباس، ﷺ.

(٥) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، د. محمد آل عابد (١/ ٤٣).

(٦) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٠)، المستدرك للحاكم (٣/ ٦٣٢).

(٧) هما عدي بن الزغباء، وبسبس بن عمرو، الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٤).

بخبرها [١]، وقد حصل خلاف بين المصادر الصحيحة حول عدد الصحابة الذين رافقوا النبي ﷺ في غزوته هذه إلى بدر، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمائة» [٢]، يذكر مسلم أنهم «ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً» [٣]، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين [٤]، كانت قوات المسلمين في بدر لا تمثل القدرة العسكرية القصوى للدولة الإسلامية، ذلك أنهم إنما خرجوا لاعتراض قافلة واحتوائها، ولم يكونوا يعلمون أنهم سوف يواجهون قوات قريش وأحلافها، مجتمعة للحرب والتي بلغ تعدادها ألفاً [٥]، معهم مائتا فرس يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء النبي ﷺ وأصحابه [٦]، في حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فَرَسان، وكان معهم سبعون بعيراً يتعاقبون ركوبها [٧].

أولاً: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدر:

وقد حدثت بعض الحوادث في أثناء مسير النبي ﷺ وأصحابه، فيها من العبر والمواعظ الشيء الكثير:

١ ـ إرجاع البراء بن عازب وابن عمر لصغرهما:

وبعد خروج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة، في طريقهم إلى ملاقاة عير أبي سفيان، وصلوا إلى (بيوت السقيا) خارج المدينة، فعسكر فيها النبي ﷺ واستعرض ﷺ من خرج معه، فردّ من ليس له قدرة على المضي مع جيش المسلمين، وملاقاة من يحتمل نشوب قتال معهم، فرد على هذا الأساس البراء بن عازب، وعبد الله بن عمر لصغرهما، وكانا قد خرجا مع النبي ﷺ راغبين وعازمين على الاشتراك في الجهاد [٨].

٢ ـ ارجع فلن أستعين بمشرك:

وفي أثناء سير النبي ﷺ وصحبه، التحق أحد المشركين راغباً في القتال مع قومه، فردّه الرسول ﷺ وقال: «ارجع فلن أستعين بمشرك» وكرّر الرجل المحاولة فرفض الرسول حتى أسلم الرجل، والتحق بالمسلمين [٩].

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ٤٢) بإسناد صحيح.
(٢) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، (٧/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢).
(٣) مسلم، شرح النووي، تحقيق أ. محمد تامر (٦/ ٣٤٠)، ط / دار الفجر للتراث.
(٤) البداية والنهاية (٣/ ٣١٤) وكذلك الطبقات، وخليفة بن خياط.
(٥) مسلم، بشرح النووي تحقيق أ. محمد تامر (٦/ ٣٤٠) ط/ دار الفجر للتراث.
(٦) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٠).
(٧) المسند (١/ ٤١١)، مجمع الزوائد (٦/ ٦٩)، جوامع السيرة (ص ١٠٨).
(٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٢٤).
(٩) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٣٥٥).

٣ ـ مشاركة النبي ﷺ أصحابه في الصعاب:

فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا يوم بدر كلُّ ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة، وعلي بن أبي طالب، زميلَيْ رسول الله ﷺ قال: وكانت عُقَبةُ رسول الله ﷺ،قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما» [١].

ثانياً: العزم على ملاقاة المسلمين ببدر:

بلغ أبا سفيان خبرُ مسير النبي ﷺ، بأصحابه من المدينة، بقصد اعتراض قافلته واحتوائها، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق الساحل، في الوقت نفسه أرسل عمرو بن ضمضم الغفاري إلى قريش يستنفرها، لإنقاذ قافلتها وأموالها [٢]، فقد كان أبو سفيان يقظاً حذراً يتلقط أخبار المسلمين، ويسأل عن تحركاتهم، بل يتحسس أخبارهم بنفسه، فقد تقدم إلى بدر بنفسه وسأل من كان هناك: «هل رأيتم من أحد؟» قالوا: لا. إلا رجلين، قال: أروني مَنَاخ ركابهما، فأروه، فأخذ البعر ففته، فإذا هو فيه النوى. فقال: «هذه والله علائف يثرب» [٣]، فقد استطاع أن يعرف تحركات عدوه، حتى خبر السرية الاستطلاعية عن طريق غذاء دوابها، بفحصه البعر الذي خلفته الإبل، إذ عرف أن الرجلين من المدينة أي من المسلمين، وبالتالي فقافلته في خطر، فأرسل عمرو بن ضمضم إلى قريش وغيَّر طريق القافلة واتجه نحو ساحل البحر [٤].

كان وقع خبر القافلة شديداً على قريش التي اشتاط زعماؤها غضباً؛ لما يرونه من امتهانٍ للكرامة، وتعريض للمصالح الاقتصادية للأخطار، إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاط لمكانة قريش بين القبائل العربية الأخرى، ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية [٥].

لقد جاءهم عمرو بن ضمضم الغفاري، بصورة مثيرة جداً، يتأثر بها كل من رآها، أو سمع بها، إذ جاءهم وقد حوّل رحله، وجدع أنف بعيره، وشق قميصه من قُبل، ومن دُبر، ودخل مكة، وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشر قريش اللَّطيمة، اللطيمة [٦]، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث [٧].

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة أرسل إلى زعماء قريش، وهو بالجحفة برسالة

---

(١) انظر: المسند (١/ ٤١١)، برقم (٣٩٠١) وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر.
(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٠).
(٤) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، (ص ٣٣، ٣٤).
(٥) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).
(٦) اللطيمة: القافلة المحملة بشتى أنواع البضاعة غير الطعام.
(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢١).

أخبرهم فيها بنجاته والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكة، وذلك أدى إلى حصول انقسام حاد في آراء زعماء قريش، فقد أصرّ أغلبهم على التقدم نحو بدر، من أجل تأديب المسلمين، وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية، وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها، وقد انشق بنو زُهرة [١]، وتخلف في الأصل بنو عدّى، فعاد بنو زُهرة إلى مكة، أما غالبية قوات قريش وأحلافهم، فقد تقدمت حتى وصلت بدراً [٢].

ثالثا: مشاورة النبي ﷺ لأصحابه:

لما بلغ النبي ﷺ نجاةُ القافلة، وإصرارُ زعماء مكة على قتال النبي ﷺ، استشار رسول الله ﷺ أصحابه في الأمر [٣]، وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش، حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا إقناع الرسول ﷺ بوجهة نظرهم، وقد صوّر القرآن الكريم موقفهم وأحوال الفئة المؤمنة عموماً في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٨].

وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو [٤]، وكان للمقداد بن الأسود موقفٌ متميزٌ، فقد قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عُدل به [٥]؛ أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أرشق وجهه وسَرَّه [٦]. وفي رواية [٧] قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن امضِ ونحن معك، فكأنه سُرِّي عن رسول الله ﷺ.

---

(١) نصحهم الأخنس بن شريق بذلك. انظر: ابن هشام (٢/ ٢٣١).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٧).

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب «قصة غزوة بدر» (٣/ ٣٩٥٢).

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٨).

(٥) المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان لو خُير بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك، لكان حصوله أحب إليه.

(٦) البخاري: كتاب المغازي، باب قصة غزوة بدر (٣/ ٣٩٥٢).

(٧) البخاري: كتاب التفسير (٣/ ٤٦٠٩).

وبعد ذلك عاد رسول الله ﷺ فقال: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وكان إنما يقصد الأنصار، لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها، ملزمة لهم بحماية الرسول ﷺ خارج المدينة، وقد أدرك الصحابي سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي ﷺ من ذلك فنهض قائلاً: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أجل»، فقال: قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر فخضته، لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعلّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسِرْ على بركة الله» (١).

سُرَّ النبي ﷺ من مقالة سعد بن معاذ، ونشطه ذلك، فقال ﷺ: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم» (٢).

كانت كلمات سعد، مشجعة لرسول الله ﷺ وملهبة لمشاعر الصحابة، فقد رفعت معنويات الصحابة وشجعتهم على القتال.

إن حرص النبي ﷺ على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات، ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فإما إلى العلياء، وإما تحت الغبراء (٣).

رابعاً: المسير إلى لقاء العدو، وجمع المعلومات عنه:

نظم النبي ﷺ جنده بعد أن رأى طاعة الصحابة، وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض وسلّمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سَوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة (٤).

وقام ﷺ ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة لقيا شيخاً من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن جيش قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم. فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبراني من أنتما. فقال له رسول

---

(١) رواه ابن هشام (٢/ ٦٣، ٦٤) عن ابن إسحاق بدون إسناد، وأورد الإمام الذهبي في مغازيه ـ تحقيق د. عمر تدمري (ص ١٠٧) كلمات قريبة من سيرة ابن هشام، وعنون لها الإمام الذهبي: «ذكر غزوة بدر من مغازي موسى بن عقبة فإنها من أصح المغازي»، وانظر صحيح مسلم: ح رقم (١٧٧٩) كتاب الجهاد ـ باب غزوة بدر.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٢) بإسناد صحيح، المسند (٥/ ٢٥٩) رقم (٣٦٩٨).

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، (ص ٣٧).

(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٧٢).

الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم»، فقال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به جيش المسلمين ـ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً ـ ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما فأخبراني من أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء» ثم انصرف النبي ﷺ وأبو بكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ (١).

وفي مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، أرسل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر؛ يتسقطون له الأخبار عن جيش قريش، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ فقال لهما: «أخبراني عن قريش»، . قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعُدوة القصوى. فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالا: كثير. قال: «ما عدّتهم؟» قالا: لا ندري. قال الرسول ﷺ: «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: «القوم فيما بين التسعمائة والألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» فذكرا عتبة، وشيبة ابني ربيعة، وأبا جهل، وأمية بن خلف، في آخرين من صناديد قريش، فأقبل رسول الله ﷺ إلى أصحابه قائلاً: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها» (٢).

كان من هدي النبي ﷺ حرصه على معرفة جيش العدو، والوقوف على أهدافه ومقاصده، لأن ذلك يعينه على رسم الخطط الحربية المناسبة لمجابهته وصدّ عدوانه، فقد كانت أساليبه في غزة بدر في جمع المعلومات، تارةً بنفسه وأخرى بغيره، وكان ﷺ يطبق مبدأ الكتمان في حروبه، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية هذا المبدأ قال تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّساء: ٨٣] .

وقد تحلى رسول الله ﷺ بصفة الكتمان في عامة غزواته، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه ـ قال: «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها. . .» (٣)وفي غزوة بدر ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي:

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).

(٢) انظر: المسند (٩٤٨)، ابن هشام (٢/ ٢٢٩ ـ أو ـ ق ١/ ٦١٦، ٦١٧) واللفظ له.

(٣) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فورّى بغيرها (٢/ ٢٩٤٧).

١ ـ سؤاله ﷺ الشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجيشه، وعن قريش وجيشها

٢ ـ تورية الرسول ﷺ في إجابته عن سؤال الشيخ: من أنتما؟ بقوله ﷺ: «نحن من ماء» وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به الرسول ﷺ كتمان أخبار جيش المسلمين عن قريش.

٣ ـ وفي انصرافه فورا استجوابه كتمانٌ ـ أيضاً ـ وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثم وقف عنده لكان هذا سبباً في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله ﷺ «من ماء» (١).

٤ ـ أمره ﷺ قطع الأجراس من الإبل يوم بدر، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر (٢).

٥ ـ كتمانه ﷺ خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال ﷺ: «... إن لنا طلبةً، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا...» (٣).

وقد استدل الإمام النووي بهذا الحديث على استحباب التورية في الحرب، وأن لا يبين القائد الجهة التي يقصدها لئلا يشيع هذا الخبر، فيحذرهم العدو (٤).

ونلحظ أن التربية الأمنية في المنهاج النبوي مستمرة منذ الفترة السرية، والجهرية بمكة، ولم تنقطع مع بناء الدولة، وأصبحت تنمو مع تطورها، وخصوصاً في غزوات الرسول ﷺ.

خامساً: مشورة الحُباب بن المنذر في بدر:

بعد أن جمع ﷺ معلومات دقيقة عن قوات قريش، سار مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدر، ليسبقوا المشركين إلى ماء بدر، وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحُباب بن المنذر وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ـ أي جيش المشركين ـ فننزله ونغوِّر ـ نخرب ـ ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبي ﷺ برأيه، ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو، فنزل عليه، ثم صنعوا الحياض، وغوروا ما عداها من الآبار (٥)، وهذا يصوّر مثلاً من حياة الرسول ﷺ مع أصحابه، حيث كان أي فرد من أفراد ذلك المجتمع

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).

(٢) انظر: المسند (٦/ ١٥٠)، برقم (٢٥١٦٦).

(٣) مسلم: كتاب الأمارة (٣/ ١٥١٠)، رقم (١٩٠١).

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم (١٣/ ٤٥).

(٥) انظر: مرويات غزوة بدر (ص ١٥٧ ـ ١٦٥)، قال مؤلفه ما ملخصه: قصة الحباب تتقوى وترتفع إلى درجة الحسن. ورواه ابن هشام (٢/ ٦٦ ـ أو ق ١/ ٦٢٠) عن ابن إسحاق.

يدلي برأيه، حتى في أخطر القضايا ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول ما يترتب على ذلك الغضب، من تدني سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد، وتأخره في الرتبة، وتضرره في نفسه أو ماله.

إن هذه الحرية التي ربّى عليها رسول الله ﷺ أصحابه، مكّنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد، والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً، وإن كان حديث السن لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد، أو آراء عصبة مهيمنة عليه، قد تنظر لمصالحها الخاصة، قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد، لأنه ليس هناك ما يحول بين أي فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه [١].

ونلحظ عظمة التربية النبوية التي سرت في شخص الحُباب بن المنذر، فجعلته يتأدب أمام رسول الله ﷺ، فتقدم دون أن يُطلب رأيه، ليعرض الخطة التي لديه، لكن هذا تمّ بعد السؤال العظيم الذي قدمه بين يدي الرسول ﷺ: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

إن هذا السؤال ليشي بعظمة هذا الجوهر القيادي الفذ الذي يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدي قائده، فإن كان الوحي الذي اختار هذا المنزل، فلأن يقدم فتقطع عنقه، أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة، وإن كان الرأي البشري، فلديه خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة.

إن هذه النفسية الرفيعة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأي، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأي المعارض، لرأي سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

وتبدو عظمة القيادة النبوية في استماعها للخطة الجديدة، وتبنى الخطة الجديدة المطروحة من جندي من جنودها أو قائد من قوادها [٢].

سادساً: الوصف القرآني لخروج المشركين:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

ينهى المولى ﷻ المؤمنين عن التشبه بالكافرين الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس.

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١١٠).

(٢) انظر: التربية القيادية (٣/ ٢١).

فقد وصف ـ سبحانه ـ الكافرين في هذه الآية بثلاثة أشياء: **الأول**: البطر، **والثاني**: الرياء، **والثالث**: الصد عن سبيل الله.

ونلحظ أن الله تعالى عبّر عن بطرهم بصيغة الاسم الدال على التمكين والثبوت، وعن صدّهم بصيغة الفعل الدال على التجدد والحدوث [١].

وقد جاء في تفسير هذه الآية عند القرطبي أن المقصود بالآية: «يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر، لنصرة العير، خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف فلما وردوا الجحفة بعث خُفَاف الكناني ـ وكان صديقاً لأبي جهل ـ بهدايا إليه مع ابن عم له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي، مع ما خف من قومي. فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله من طاقة. وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد، حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدراً موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد، فوردوا بدراً ولكن جرى ما جرى من هلاكهم» [٢].

سابعاً: موقف المشركين لمَّا قدموا إلى بدر:

بيّن سبحانه وتعالى موقف المشركين لمَّا قدموا إلى بدر، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ ۚ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن ثعلبة، أن أبا جهل قال حين التقى القومُ ـ في بدر ـ: اللهم أقطعُنا للرحم، وآتانا بما لا يُعرف، فأَحِنْه ـ أي أهلكه ـ الغداة. فكان المستفتِح [٣].

ولما وصل جيش مكة إلى بدر دبّ فيهم الخلاف، وتزعزعت صفوفهم الداخلية، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزل المسلمون وأقبل المشركون، نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة بن ربيعة، وهو على جمل أحمر، فقال: «إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا» وهو يقول: يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم، فإنكم إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه وقاتل أبيه، فاجعلوا حقها برأسي وارجعوا، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره [٤]، حين رأى محمداً وأصحابه، إنما محمد وأصحابه أَكَلَةَ جزور لو قد التقينا.

---

(١) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٦٥، ٦٦).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥).

(٣) المسند (٥/ ٤٣١)، برقم (٢٣٦٦١) وقال محققو ط/ الرسالة: صحيح وهذا إسناد حسن.

(٤) سحرك: رئتك، يقال ذلك للجبان.

فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إن لأرى قوماً يضربونكم ضرباً، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي، وكأن وجههم السيوف . . .[١].

وهذا حكيم بن حزام يحدّثنا عن يوم بدر وكان في صفوف المشركين قبل إسلامه. قال: خرجنا حتى نزلنا العدوة التي ذكرها الله ﷻ، فجئت عتبة بن ربيعة فقلت: يا أبا الوليد هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال: افعل ماذا؟

قلت: إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي [٢] وهو حليفك فتحمل ديته وترجع بالناس، فقال: أنت وذاك وأنا أتحمل بديته، واذهب إلى ابن الحنظلية [٣] ـ يعني أبا جهل ـ فقل له: هل لك أن ترجع بمن معك عن ابن عمك؟

فجئته فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه، وإذا ابن الحضرمي [٤] واقف على رأسه وهو يقول: قد فسخت عقدي من عبد شمس، وعقدي إلى بني مخزوم. فقلت له: يقول لك عتبة بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمك بمن معك؟

قال: أما وجد رسولاً غيرك؟

قلت: لا، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره.

قال حكيم: فخرجت مبادراً إلى عتبة لئلا يفوتني من الخبر شيء [٥]، فهذا عتبة بن ربيعة وهو في القيادة من قريش لا يرى داعياً لقتال محمد، وقد دعا قريشاً إلى ترك محمد فإن كان صادقاً فيما يدعو إليه فعزه عز قريش، وملكه ملكها، وستكون أسعد الناس به، وإن كان كاذباً فسيذوب في العرب وتنهيه.

ولكن كبرياء الجاهلية دائماً في كل زمان ومكان لا يمكن أن يترك الحق يتحرك، لأنها تعلم أن انتصاره معناه زوالها من الوجود وبقاؤه مكانها [٦].

وهذا عمير بن وهب الجمحي ترسله قريش ليحرز لهم أصحاب محمد، فاستجال حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني، أنظر للقوم كمين أو مدد، قال: فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً، ولكن قد رأيت يا معشر

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٧٦)، وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

(٢) تقدم ذكره في سرية عبد الله بن جحش.

(٣) ابن الحنظلية هو أبو جهل وهي أسماء بنت مُخربّة من بني تميم.

(٤) المقصود هنا عامر أخو عمرو المتقدم.

(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٦) انظر: مرويات غزوة بدر، (ص ١٥٥).

قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فَرُوا رأيكم؟ (١).

وهذا أمية بن خلف رفض الخروج من مكة ابتداءً خوفاً من الموت، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك. فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني، فوالله لأشترين أجود بعير بمكة.

ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني.

فقالت له: أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ تقصد سعد بن معاذ عندما قال له: سمعت رسول الله يقول: إنهم لقاتلوك (٢).

قال: لا. ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله ﷻ ببدر (٣).

ومن دهاء أبي جهل لعنه الله أن سلط عقبة بن أبي معيط على أمية بن أبي خلف فأتاه عقبة بمجمرة حتى وضعها بين يديه فقال: إنما أنت من النساء.

فقال: قبّحك الله (٤).

لقد كانت القوة المعنوية لجيش مكة متزعزعة في النفوس، وإن كان مظهره القوة والعزم والثبات إلا أن في مخبره الخوف والجبن والتردد (٥).

وكان لرؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أثر على معنويات أهل مكة، فقد رأت في المنام أن رجلا استنفر قريشاً، وألقى بصخرة من رأس جبل أبي قبيس بمكة، فتفتتت ودخلت سائر دور قريش، وقد أثارت الرؤيا خصومة بين العباس وأبي جهل حتى قدم ضمضم وأعلمهم بخبر القافلة فسكنت مكة وتأولت لرؤيا (٦).

كما أن جُهَيم بن الصَّلت بن المطلب بن عبد مناف رأى رؤيا، عندما نزلت قريش الجحفة، فقد رأى رجلاً أقبل على فرس حتى وقف، ومعه بعير له؛ ثم قال: قتل عتبة بن

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٩).

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٣٨)، المطبعة السلفية، مصر.

(٣) انظر: مرويات غزوة بدر، (ص ١٣٦).

(٤) انظر: مرويات غزوة بدر، (ص ١٣٧).

(٥) المصدر نفسه، (ص ١٣٨).

(٦) انظر: المجتمع المدني في عصر النبوة للعمري، (ص ٤١).

ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان وفلان، فعدد رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لَبَّة بعيره، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح [١] من دمه، فلما بلغت أبا جهل هذه الرؤيا، قال: وهذا أيضاً نبي من بني المطلب سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا [٢]. كانت تلك الرؤى قد ساهمت بتوفيق الله تعالى في إضعاف النفسية القرشية المشركة.

المبحث الثاني

النبي ﷺ والمسلمون في ساحة المعركة

أولاً: بناء عريش القيادة:

بعد نزول النبي والمسلمين معه، على أدنى ماء بدر من المشركين، اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ، بناء عريش له يكون مقراً لقيادته، ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: «يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشدَّ لك حباً منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك» فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بالخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله ﷺ، على تلٍّ مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله ﷺ [٣].

ويُستفاد من بناء العريش أمورٌ، منها:

١ ـ لا بدّ أن يكون مكان القيادة مشرفاً على أرض المعركة، يتمكن القائد فيه من متابعة المعركة وإدارتها.

٢ ـ ينبغي أن يكون مقر القيادة آمناً بتوافر الحراسة الكافية له.

٣ ـ ينبغي الاهتمام بحياة القائد، وصونها من التعرض لأي خطر.

٤ ـ ينبغي أن يكون للقائد قوة احتياطية أخرى تعوض الخسائر التي قد تحدث في المعركة [٤].

---

(١) نضح: لطخ.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٠).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٣).

(٤) انظر: غزوة بدر الكبرى، (ص ٦٦).

ثانياً: من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

من المنن التي منّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدر أنه أنزل عليهم النعاس والمطر وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

قال القرطبي: «وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها، فكان النوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، وكأن الله ربط جأشهم.

«وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر، غير المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة، يُصلي ويبكي حتى أصبح.

«وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: أن قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمَّنهم بزوال الرعب من قلوبهم كما يقال: الأمن مُنيم، والخوف مُسْهِر» (١).

وبيّن سبحانه وتعالى أنه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم في وقت لم يكن المعتاد فيه نزول الأمطار، وذلك فضلاً منه وكرماً، وإسناد هذا الإنزال إلى الله للتنبيه على أنه أكرمهم به.

قال الإمام الرازي: «وقد علم بالعادة أن المؤمن يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنباً، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب، فلا جَرَمَ عدَّ تعالى وتقدس تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه...» (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فقد روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزل النبي ﷺ ـ يعني حين سار إلى بدر، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعْصَة ـ أي كثير مجتمعة ـ فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم (٣).

فقد بيّن سبحانه أنه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة، فتطهروا به حسياً ومعنوياً، إذ ربط الله به على قلوبهم، وثبت به أقدامهم، وذلك أن الناظر في منطقة بدر يجد في

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٣٧٢).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي (١٥/ ١٣٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٩٥).

المنطقة رمالاً متحركة لا زالت حتى اليوم، ومن العسير المشي عليها، ولها غبار كبير، فلما نزلت الأمطار تماسكت تلك الرمال، وسهل السير عليها، وانطفأ غبارها، وكل ذلك كان نعمة من الله على عباده [١].

ثالثاً: خطة الرسول ﷺ في المعركة:

ابتكر الرسول ﷺ في قتاله مع المشركين يوم بدر أسلوباً جديداً في مقاتلة أعداء الله تعالى، لم يكن معروفاً من قبل حتى قاتل ﷺ بنظام الصفوف [٢]، وهذا الأسلوب أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصَّف: ٤] .

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصلاة، وتقل هذه الصفوف أو تكثر تبعاً لقلة المقاتلين أو كثرتهم.

وتكون الصفوف الأولى من أصحاب الرماح لصدّ هجمات الفرسان، وتكون الصفوف التي خلفها من أصحاب النبال، لتسديدها من المهاجمين على الأعداء، وكان من فوائد هذا الأسلوب في غزوة بدر:

١ ـ إرهاب الأعداء ودلالة على حسن وترتيب النظام عند المسلمين.

٢ ـ جعل في يد القائد الأعلى ﷺ قوة احتياطية، عالج بها المواقف المفاجئة في صد هجوم معاكس، أو ضرب كمين غير متوقع، واستفاد منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة والفرسان، ويعد تطبيق هذا الأسلوب لأول مرة في غزوة بدر سبقاً عسكرياً تميّزت به المدرسة العسكرية الإسلامية على غيرها، منذ أربعة عشر قرناً من الزمان [٣].

ويظهر للباحث في السيرة النبوية أن النبي ﷺ كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية الجديدة، وخاصة تلك التي لم يعهدها العرب من قبل، على نحو ما قام به النبي ﷺ في يوم بدر، وأحد وغيرهما.

ومن جهة النظرة العسكرية فإن هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب بشخصية النبي ﷺ، وبراعته العسكرية، لأن التعليمات العسكرية التي كان يصدرها خلال تطبيقه لها تطابق تماماً الأصول الحديثة في استخدام الأسلحة [٤].

---

(١) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (١/ ٩١).

(٢) انظر: القيادة العسكرية، د. محمد الرشيد (ص ٤٠١).

(٣) انظر: الرسول القائد، خطاب (ص ١١١، ١١٦، ١١٧).

(٤) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية. د. محمد محفوظ (ص ١٢١).

وتفصيل ذلك فقد اتبع ﷺ أسلوب الدفاع ولم يهاجم قوة قريش، وكانت توجيهاته (التكتيكية) التي نفّذها جنوده بكل دقة سبباً في زعزعة مركز العدو، وإضعاف نفسيته وبذلك تحقق النصر الحاسم بتوفيق الله على العدو برغم تفوقه [١] بنسبة ٣ إلى ١، فقد كان ﷺ يتصرف في كل موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة، وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال والظروف. وقد طبّق الرسول ﷺ في الجانب العسكري أسلوب القيادة التوجيهية في مكانها الصحيح، أما أخذه بالأسلوب الإقناعي في غزوة بدر فقد تجلّى في ممارسة فقه الاستشارة في مواضع متعددة، لأنه ﷺ لا يقود جنده بمقتضى السلطة، بل بالكفاءة والثقة، وهو ﷺ أيضاً لا يستبد برأيه، بل يتبع مبدأ الشورى وينزل على الرأي الذي يبدو صوابه، ومارس ﷺ في غزوة بدر أسلوب القيادة التوجيهية، فقد تجلى في أمور منها:

١ ـ الأمر الأول: أمره ﷺ الصحابة برمي الأعداء إذا اقتربوا منهم، لأن الرمي يكون أقرب إلى الإصابة في هذه الحالة «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل» [٢].

٢ ـ الأمر الثاني: نهيه ﷺ عن سل السيوف إلى أن تتداخل الصفوف [٣] «ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم» [٤].

٣ ـ الأمر الثالث: أمره ﷺ الصحابة بالاقتصاد في الرمي [٥] «واسْتَبْقُوا نَبْلَكم» [٦].

وعندما تقارن هذه التعليمات الحربية بالمبادىء الحديثة في الدفاع؛ تجد أن رسول الله ﷺ كان سباقاً إليها، من غير عكوف إلى الدرس، ولا التحاق بالكليات الحربية، فالنبي ﷺ يرمي من وراء تعليماته التي استعرضناها آنفاً إلى تحقيق ما يعرف حديثاً بكبت النيران إلى اللحظة التي يصبح فيها العدو في المدى المؤثر لهذه الأسلحة، وهذا ما قصده ﷺ في قوله: «استبقوا نبلكم».

أ ـ فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال الأعداء:

ولم يهمل ﷺ فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال العدو، فقد كان يستفيد من كل الظروف في ميدان المعركة لمصلحة جيشه، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله ﷺ قبل بدء القتال يوم بدر، يقول المقريزي: «وأصبح ﷺ ببدر قبل أن تنزل قريش فطلعت الشمس وهو يصفّهم، فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه فاستقبلوا الشمس» [٧].

---

(١) انظر: مقومات النصر، د. أحمد أبو الشباب (٢/ ١٥٤).

(٢) صحيح السيرة النبوية برواية أخرى ونفس المعنى، (ص ٢٣٩).

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى، ص ٦٣، ٦٤ لأبي فارس.

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٣٩).

(٥) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، (ص ٦٣، ٦٤).

(٦) البخاري: كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً رقم (٣٩٨٤، ٣٩٨٥).

(٧) انظر: القيادة العسكرية، (ص ٤٥٣).

وهذا التصرف يدل على حسن تدبيره ﷺ واستفادته حتى من الظروف الطبيعية لما يحقق المصلحة لجيشه، وإنما فعل ذلك لأن الشمس إذا كانت في وجه المقاتل تسبب له عَشا [١] البصر فتقل مقاومته ومجابهته لعدوه [٢]، وفيما فعله رسول الله ﷺ يوم بدر إشارة إلى أن الظروف الطبيعية كالشمس والريح والتضاريس الجغرافية وغيرها لها تأثير عظيم على موازين القوى في المعارك، وهي من الأسباب التي طلب الله منا الأخذ بها لتحقيق النصر والصعود إلى المعالي [٣].

ب ـ سَوَاد بن غَزِيَّة في الصفوف:

كان ﷺ في بدر يعدل الصفوف ويقوم بتسويتها لكي تكون مستقيمة متراصة، وبيده سهم لا ريش له يعدل به الصف، فرأى رجلاً اسمه سواد بن غزية وقد خرج من الصف، فطعنه ﷺ في بطنه، وقال له: «استو يا سواد». فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «استقد»، فاعتنقه فقبّل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد»، قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير [٤].

ويُستفاد من قصة سواد ـ رضي الله عنه ـ أمور منها:

١ ـ حرص الإسلام على النظام.

٢ ـ العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله ﷺ القود من نفسه.

٣ ـ حب الجندي لقائده.

٤ ـ تذكر الموت والشهادة.

٥ ـ جسد رسول الله ﷺ مبارك، ومسه فيه بركة، ولهذا حرص عليها سواد.

٦ ـ بطن الرجل ليس بعورة، بدليل أن النبي ﷺ كشف عنه، ولو كان عورة لما كشف عنه [٥].

جـ ـ تحريض النبي ﷺ أصحابه على القتال:

كان رسول الله ﷺ يربي أصحابه على أن يكونوا أصحاب إرادات قوية، راسخة ثابتة ثبات

---

(١) سوء البصر بالليل والنهار يكون في الناس والدواب والإبل والطير.

(٢) انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٧/ ١٧٥).

(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، (ص ٤٥٤).

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٣٦).

(٥) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس (ص ٥٢).

الشم الرواسي فيملأ قلوبهم شجاعة وجرأة وأملاً في النصر على الأعداء، وكان يسلك في سبيل تكوين هذه الإرادة القوية أسلوب الترغيب والترهيب، الترغيب في أجر المجاهدين الثابتين، والترهيب من التولي يوم الزحف، والفرار من ساحات الوغى، كما كان يحدثهم عن عوامل النصر وأسبابه؛ ليأخذوا بها ويلتزموها، ويحذرهم من أسباب الهزيمة ليقلعوا عنها، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب منها [١].

وكان ﷺ يحثّ أصحابه على القتال ويحرضهم عليه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥] .

وفي غزوة بدر الكبرى قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض»، فقال عمير بن الحُمَام الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بَخٍ بَخٍ (كلمة تعجب).

فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك: بَخٍ بَخٍ؟».

قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها».

فأخرج تمرات من قَرَنِهِ (جعبة النشاب) فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل [٢].

وفي رواية قال: قال أنس: فرمى ما كان معه من التمر، وقاتل وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زادِ ... إلا التُّقى وعملَ المعادِ
والصبرَ في الله على الجهاد ... وكلُّ زادٍ عُرْضَةُ النَّفادِ
غيرُ التقى والبرِ والرشادِ

فقاتل رحمه الله حتى استشهد [٣].

ومن صور التعبئة المعنوية أنه ﷺ كان يبشرهم بقتل صناديد المشركين، وزيادة لهم في التطمين كان يحدد مكان قتل كل واحد منهم [٤]، كما كان يبشر المؤمنين بالنصر قبل بدء القتال، فيقول: أبشر أبا بكر. ووقف رسول الله ﷺ يقول للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فَيُقْتَل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا

(١) انظر: المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس، (ص ١٤٠).

(٢) انظر: مختصر صحيح مسلم للمنذري (٢/ ٧٠)، رقم (١١٥٧) ورقمه في الصحيح [١٤٥ ـ (١٩٠١)].

(٣) انظر: صفة الصفوة (١/ ٤٨٨)، زاد المعاد (٣/ ١٨٢)، تاريخ الطبري: (٢/ ٤٤٨).

(٤) انظر: جامع الأصول (٨/ ٢٠٢).

أدخله الله الجنة» (١).

وقد أثرت هذه التعبئة المعنوية في نفوس أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ والذين جاءوا من بعدهم بإحسان (٢).

وكان ﷺ يطلب من المسلمين أن لا يتقدم أحد إلى شيء حتى يكون دونه، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «... فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» (٣)، فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» (٤).

د ـ دعاؤه ﷺ واستغاثته:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

لما نظم ﷺ صفوف جيشه، وأصدر أوامره لهم وحرضهم على القتال، رجع إلى العريش الذي بُني له ومعه صاحبه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته وهو شاهر سيفه، واتجه رسول الله ﷺ إلى ربه يدعوه ويناشده النصر الذي وعده، ويقول في دعائه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض» فما زال ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر وردّه على منكبيه وهو يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك (٥) فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وفي رواية ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك الله، فخرج ﷺ وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر» (٦).

وروى ابن إسحاق أنه ﷺ قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني» (٧).

وهذا درس رباني مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم، أو فرد في التجرد من النفس وحظها،

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٩).
(٢) المدرسة العسكرية الإسلامية لأبي فارس، (ص ١٤٣).
(٣) انظر: مسلم (٣/ ١٥١٠)، قم (١٩٠١).
(٤) انظر: المنذري، مختصر صحيح مسلم (٢/ ٧٠)، رقم (١١٥٧).
(٥) انظر: مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ببدر (٣/ ٣٨٤).
(٦) البخاري: كتاب المغازي، باب قصة بدر (٥/ ٦)، رقم (٣٩٥٣).
(٧) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٢٦٧).

والخلوص واللجوء للّه وحده، والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه؛ لكي ينزل نصره، ويبقى مشهد نبيه وقد سقط رداؤه عن كتفه وهو ماد يديه يستغيث بالله، يبقى هذا المشهد محفوراً بقلبه ووجدانه يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات، وفي مثل هذه المواطن حيث تناط به المسؤولية وتلقى عليه أعباء القيادة [١].

هـ ـ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى:

بعد أن دعا ﷺ ربه في العريش، واستغاث به خرج من العريش فأخذ قبضة من التراب، وحصب بها وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه» ثم أمر ﷺ أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله [٢] ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] . ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته، فالرمي يراد به الحذف والإيصال، فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال [٣]، ونلحظ أن الرسول ﷺ أخذ بالأسباب المادية والمعنوية، وتوكل على الله فكان النصر والتأييد من الله تعالى؛ فقد اجتمع في بدر الأخذ بالأسباب بالقدر الممكن، مع التوفيق الرباني في تهيئة جميع أسباب النصر، متعاونة متكافئة مع التأييدات الربانية الخارقة والغيبية، ففي عالم الأسباب تشكل دراسة الأرض والطقس، ووجود القيادة والثقة بها، والروح المعنوية لبناتٍ أساسيةٍ في صحة القرار العسكري، ولقد كانت الأرض لمصلحة المسلمين وكان الطقس مناسباً للمعركة، والقيادة الرفيعة موجودة والثقة بها كبيرة، والروح المعنوية مرتفعة، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكل مباشر وتوفيقه، وبعضها كان من فعل رسول الله ﷺ أخذاً بالأسباب المطلوبة، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله، وزيد على ذلك التأييدات الغيبية والخارقة فكان ما كان، وذلك نموذج على ما يُعطاه المسلمون بفضل الله إذا ما صلحت النيات عند الجند والقادة، ووجدت الاستقامة على أمر الله، وأخذ المسلمون بالأسباب [٤].

المبحث الثالث

نشوب القتال وهزيمة المشركين

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفردية، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار ولكن الرسول ﷺ أرجعهم لأنه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله وذوي قرباه، ولذلك

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٣٦).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥).

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٣).

(٤) انظر: الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية (١/ ٤٧٤).

قال ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة وقم يا علي» وبارز حمزة شيبة فقتله، وبارز عليّ الوليد وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة موجعة، فكرّ حمزة وعليٌّ على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة وأتيا به إلى رسول الله ﷺ ولكن ما لبث أن توفى متأثراً من جراحته وقد قال عنه ﷺ: «أشهد أنك شهيد» (١)، وفي هؤلاء الستة نزل قوله تعالى:

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحَجّ: ١٩ ـ ٢٤].

ولما شاهد المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة، استشاطوا غضباً، وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً، صمد وثبت له المسلمون وهم واقفون موقف الدفاع، ويرمونهم بالنبل كما أمرهم النبي ﷺ وكان شعار المسلمين: أَحَد.. أَحَد، ثم أمرهم النبي ﷺ بالهجوم المضاد محرضاً لهم على القتال، وقائلاً لهم: «شدوا» وواعداً من يقتل صابراً محتسباً بأن له الجنة، ومما زاد في نشاط المسلمين واندفاعهم في القتال سماعهم قول النبي ﷺ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القَمَر: ٤٥] وعلمهم وإحساسهم بإمداد الملائكة وبتقليلهم في أعين المسلمين وتقليل المسلمين في أعين المشركين (٢).

فقد كان ﷺ قد رأى في منامه ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان، رأى عدد المشركين قليلاً، وقد قص رؤياه على أصحابه فاستبشروا خيراً، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفَال: ٤٣].

المعنى أن النبي ﷺ رآهم ـ أي رأى المشركين ـ في منامه قليلاً فقص ذلك على أصحابه؛ فكان ذلك سبباً لثباتهم. قال مجاهد: ولو رآهم في منامه كثيراً لفشلوا وجبنوا عن قتالهم، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا؟ والمضارع في الآية بمعنى الماضي لأن نزول الآية كان بعد الإراءة في المنام ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي عصمهم من الفشل والتنازع فقللهم في عين رسول الله ﷺ (٣)، فقصّ رؤياه على أصحابه فكان في ذلك تثبيت لهم، وتشجيعهم وجرأتهم على عدوهم، وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين رأى كل منهم عدد الآخر قليلاً. قال

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٦).

(٢) انظر: الرحيق المختوم (ص ١١٦ ـ ١١٨).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٢٥).

تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤] وإنما قلّلهم في أعين المسلمين تصديقاً لرؤيا النبي ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزدادوا يقيناً ويجدُّوا في قتالهم ويثبتوا، وقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً. وقوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل من المشركين: إنما هم أَكَلَةَ جَزُور. ووجه الحكمة واللطف بالمسلمين في هذا التقليل، هو أن إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلاً ثبتهم ونشطهم، وجرأهم على قتال المشركين، ونزع الخوف - من قلوب المسلمين - من أعدائهم. ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين؛ هو أنهم إذا رأوهم قليلاً أقدموا على قتالهم غير خائفين ولا مبالين بهم، ولا آخذين الحذر منهم، فلا يقاتلون بجد واستعداد ويقظة وتحرز، ثم إذا ما التحموا بالقتال فعلاً تفجؤهم الكثرة فيبهتون ويهابون، وتكسر شوكتهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم وانتصار المسلمين عليهم [١].

أولاً: إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

ثبت من نصوص القرآن الكريم، والسنّة النبوية المطهرة، ومرويات عدد من الصحابة البدريين؛ أن الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٦].

وأورد البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وغيرهم عدداً من الأحاديث الصحيحة، التي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر، وقيامهم بضرب المشركين وقتلهم [٢].

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حَيْزُوم [٣]. فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو خُطِمَ أنفه [٤]، وشق وجهه كضربة السوط فاخضر

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٢/ ٢٢٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٥).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٩١).

(٣) حيزوم: اسم الفرس الذي يركبه الملك.

(٤) خطم: الخطم الأثر على الأنف.

ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة» [١]، ومن حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً قال: إن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريلُ آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب» [٢]. ومن حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح [٣]، من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق [٤] ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: «اسكت فقد أيدك الله بملك كريم» [٥]، ومن حديث أبي داود المازني قال: «إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قتله غيري» [٦].

«إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعي ثابت لا شك فيه، وإن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سبباً لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل ما يمكن أن يكون سبباً لنصر المسلمين، من بشارتهم بالنصر ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم؛ من بواعث الأمل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم مُعانون من الله تعالى، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال، ولا شك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوى قلوبهم، وثبتهم في القتال، وهذا ما دلّت عليه الآية، وصرّحت به الأحاديث النبوية» [٧].

وقد يسأل سائل: ما الحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة مع أن واحداً من الملائكة كجبريل عليه السلام قادر بتوفيق الله على إبادة الكفار؟

وقد أجاب الأستاذ عبد الكريم زيدان على ذلك فقال: لقد مضت سنّة الله بتدافع الحق وأهله مع الباطل وأهله، وأن الغلبة تكون وَفْقاً لسنن الله في الغلبة والانتصار، وأن هذا التدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحق والباطل، ومن ثمرات التمسك بالحق والقيام بمتطلباته أن يحصلوا على عون وتأييد من الله تعالى، بأشكال وأنواع متعددة من التأييد والعون، ولكن تبقى المدافعة والتدافع، يجريان وَفْقاً لسنن الله فيهما، وفي نتيجة هذا التدافع، فالجهة الأقوى بكل معاني القوة اللازمة للغلبة هي التي تغلب، فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة،

---

(١) مسلم ـ الجهاد، باب الإمداد بالملائكة، رقم (١٧٦٣).
(٢) البخاري ـ المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، رقم (٣٩٩٥).
(٣) الأجلح: الذي انحسر شعره عن جانبي رأسه.
(٤) الأبلق: الذي ارتفع التحجيل إلى فخذيه.
(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٤٧).
(٦) المصدر نفسه، (ص ٢٤٧).
(٧) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١، ١٣٢).

ذلك الإمداد الذي تحقق به ما يستلزم الغلبة على العدو، ولكن بقيت الغلبة موقوفة على ما قدمه أولئك المؤمنون من قتال ومباشرة لأعمال القتال، وتعرضهم للقتل، وصمودهم وثباتهم في الحرب، واستدامة توكلهم على الله، واعتمادهم عليه، وثقتهم به، وهذه معان جعلها الله حسب سننه في الحياة أسباباً للغلبة والنصر، مع الأسباب الأخرى المادية، مثل العُدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونها.. إلخ، ولهذا فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل وقتال المبطلين، وأن يهيئوا الأسباب المادية والإيمانية للغلبة والانتصار، وبأيديهم، إن شاء الله تعالى، ينال المبطلون ما يستحقونه من العقاب [١]، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

إن نزول الملائكة عليهم السلام من السموات العلى إلى الأرض لنصر المؤمنين؛ حدث عظيم.

إنه قوة عظمى، وثبات راسخ للمؤمنين، حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتنبوا موانعه فإنهم أهل لمدد السماء، وهذا الشعور يعطيهم جرأة في مقابلة الأعداء، وإن كان على سبيل المغامرة، لبُعد التكافؤ المادي بين جيش الكفار الكبير عدداً القوي إعداداً، وجيش المؤمنين القليل عدداً الضعيف إعداداً.

وهو في الوقت نفسه عامل قوي في تحطيم معنوية الكفار، وزعزعة يقينهم، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تكرار نزول الملائكة الذي شاهدهم بعضهم عياناً، إنهم مهما قدروا قوة المسلمين وعددهم؛ فإنه سيبقى في وجدانهم رعب مزلزل من احتمال مشاركة قوى غير منظورة، لا يعلمون عددها ولا يقدِّرون مدى قوتها، وقد رافق هذا الشعور المؤمنين في كل حروبهم التي خاضها الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في العهد النبوي، وفي عهد الخلفاء الراشدين، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك فكان عاملاً قوياً في انتصاراتهم المتكررة الحاسمة مع أعدائهم [٢].

ثانياً: انتصار المسلمين على المشركين وحديث رسول الله ﷺ لأهل القليب:

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلاً، وأسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً، منهم ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، ولما تم الفتح وانهزم المشركون، أرسل ﷺ عبد الله بن رواحة، وزيد بن حارثة، ليبشرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين [٣].

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣١، ١٣٢).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي ٤/ ١٤٥.

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٣).

ومكث ﷺ ثلاثة أيام في بدر، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «إنه ﷺ كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاثة ليال...» [١] ولعل الحكمة في ذلك.

١ ـ تصفية الموقف بالقضاء على أية حركة من المقاومة اليائسة، التي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارين هرباً إلى الجبال.

٢ ـ دفن من استشهد من جند الله، مما لا تكاد لا تخلو منه معركة، فقد دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة، ولم يرد ما يشير إلى الصلاة عليهم، ولم يدفن أحد منهم خارج بدر [٢].

٣ ـ جمع الغنائم وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ، حتى تؤدى كاملة إلى مستحقيها، وقد أسندت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبد الله بن كعب الأنصاري أحد بني مازن [٣].

٤ ـ إعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها، بعد الجهد النفسي والبدني المضني الذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجروحيه، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النصر المؤزر، الذي لم يكن داني القطوف، سهل المنال، ويتذاكر أفراده وجماعاته ما كان من أحداث ومفاجآت في الموقعة، مما كان له أثر فعال في استجلاب النصر، وما كان من فلان في شجاعته وفدائيته، وجرأته على اقتحام المضائق وتفريج الأزمات، وما تكشفت عنه المعركة من دروس عملية في الكر والفر، والتدبير المحكم الذي أخذ به العدو، وما في ذلك من عبر، واستذكار أوامر القيادة العليا، وموقفها في رسم الخطط، ومشاركتها الفعلية في تنفيذها، ليكون من كل ذلك ضياء يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

٥ ـ مواراة جيف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والعرف عليهم وعلى مكانتهم في حشودهم، وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت، للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه، اتقاء شرّه في المستقبل، كالذي كان في أمر الفاسق أبي جهل، فرعون هذه الأمة، والذي كان في شأن رأس الكفر أمية بن خلف وأضرابهما، وقد أمر رسول الله ﷺ بإلقاء هؤلاء الأخباث في رَكِيّ [٤] من قُلُب [٥] بدر خبيث مُخْبِث، ثم وقف على شفة الركى [٦]، وقد ورد أنه ﷺ وقف على القتلى فقال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس،

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٥٠).

(٢) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٩١).

(٣) انظر: محمد رسول الله ﷺ، صادق عرجون (٣/ ٤٥٣).

(٤) رَكِيّ: حافة البئر.

(٥) قُلُب: أبيار ومفرده بئر.

(٦) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٣/ ٤٥٤).

وأخرجتموني وآواني الناس» [١].

ثم أمر بهم، فسُحبوا إلى قليب من قلب بدر، فطرحوا فيه ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! ما تخاطب من أقوام قد جيَّفوا؟ فقال: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» [٢] قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخاً، وتصغيراً، ونقمة، وحسرة، وندماً [٣].

إن مناداة الرسول ﷺ لقتلى قريش بيّنت أمراً عظيماً، وهو أنهم بدأوا حياة جديدة، هي حياة البرزخ الخاصة، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء، غير أنهم لا يجيبون ولا يتكلمون، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحاح الأحاديث، حتى أنه ﷺ مرّ بقبرين وقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير» [٤] وذكر أن سبب تعذيبهما النمُّ بين الناس، وعدم الاستنزاه من البول [٥].

ولا بدّ من التسليم بهذه الحقائق الغيبية بعد أن تحدث عنها الصادق المصدوق، وقطع بها القرآن الكريم في تعذيب آل فرعون قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وأما الشهداء فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

المبحث الرابع

مشاهد وأحداث من المعركة

أولاً: مصارع الطغاة:

أ ـ مصرع أبي جهل بن هشام المخزومي:

قال عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ: بينا أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت أن أكون بين أضلع منهما [٦]،

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٨٧).

(٢) البخاري المغازي، باب قتل أبي جهل رقم (٣٩٧٦) ومسلم: ح (٢٨٧٣، ٢٨٧٤).

(٣) الأساس في السنّة وفقهها ـ السيرة النبوية (١/ ٤٧٩).

(٤) انظر: البخاري، كتاب الوضوء، باب «ما جاء في غسل البول» رقم (٢١٨).

(٥) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فوزي فضل الله، (ص ٦٤).

(٦) أضلع: أقوى وأعظم وأشد.

فغمزني [١] أحدهما، فقال: يا عمِّ هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها.

فلم أَنْشَب [٢] أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس قلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «هل مسحتما سيفيكما»؟ قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: «كلاكما قتله سَلَبُهُ لمعاذ بن عمرو بن الجموح» وكانا معاذ بن عفراء ومعاذ بن عمرو بن الجَموح [٣]، وفي حديث أنس قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «من ينظر ما فعل أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضَرَبَه ابنا عفراء حتى بَرَدَ [٤] فأخذ بلحيته فقال: أنت أبا جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه. أو قال «قتلتموه» [٥]، وفي حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فقال: أدركت أبا جهل يوم بدر صريعاً، فقلت: أيْ عدو الله قد أخزاك الله؟

قال: أخزاني؟ من رجل قتلتموه، ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحتك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوقع السيف من يده فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه، فضربت عنقه ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟».

قلت: الله الذي لا إله إلا هو.

قال: فانطلق فاستثبت، فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته.

فقال رسول الله ﷺ: «انطلق» فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: «هذا فرعون هذه الأمة» [٦].

كان الدافع من حرص الأنصاريين الشابين على قتل أبي جهل، ما سمعاه من أنه كان يسب رسول الله ﷺ، وهكذا تبلغ محبة شباب الأنصار لرسول ﷺ إلى بذل النفس في سبيل الانتقام ممن تعرض له بالأذى.

وما جرى بين عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وأبي جهل، وهو في الرمق الأخير من

---

(١) غمزني: قرصني.
(٢) أنشب: ألبث.
(٣) البخاري: فرض الخمس، باب من لم يُخَمِّس الأسلاب رقم (٣١٤١).
(٤) برد: قارب على الموت وكان في النزع الأخير.
(٥) البخاري: كتاب المغازي، باب «قتل أبي جهل» رقم (٣٩٦٣).
(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٤٢).

الحوار، فيه عبرة بليغة، فهذا الطاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكة قد وقع صريعاً بين أيدي من كان يؤذيهم.

ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على آخر رمق من حياته هو أحد المستضعفين، ولقد كان أبو جهل مستكبراً جباراً حتى وهو صريع، وفي آخر لحظات حياته [١]، فقد جاء في رواية لابن إسحاق أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتزَّ رأسه: «لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم» [٢].

«فالله تعالى لم يعجِّل لهذا الخبيث أبي جهل بضربات الأبطال من أشبال الأنصار، ولكنه أبقاه مصروعاً في حالة من الإدراك والوعي ـ بعد أن أصابته ضربات أشْفَتْ به على الهلاك الأبدي ـ ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة والذل، والخذلان على يد من كان يستضعفه ويؤذيه، ويضطهده بمكة ـ من رجال الرعيل الأول السابقين إلى مظلَّة الإيمان، وطهر العقيدة، والتعبُّد للّه بشرائعه التي أنزلها رحمة للعالمين ـ عبد الله بن مسعود ـ ﷺ ـ فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقيراً له، ويقرِّعه تقريعاً يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره في الأرض، ويستل منه سيفه إمعاناً في البطش به فيقتله به... ويمعن في إغاظته بإخباره أن النصر عقد بناصية جند الله وكتيبة الإسلام، وأن شنار الهزيمة النكراء وعارها، وخزيها وخذلانها قد رزئت به كتائب الغرور الأجوف في حشود النفير الذي قاده هذا الكفور الخبيث...» [٣].

ب ـ مصرع أمية بن خلف:

قال عبد الرحمن بن عوف ـ ﷺ ـ: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي [٤] بمكة، وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت (الرحمن) قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته عبدَ عمرو.

فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه [٥] حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف! لا نجوتُ إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلَّفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه ثم أبوا حتى يَتْبَعونا ـ وكان رجلاً ثقيلاً ـ فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه،

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٨ ـ ١٦٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٤٧).

(٣) انظر: محمد رسول الله، الصادق عرجون (٣/ ٤٣١، ٤٣٢).

(٤) الصاغية: صاغية الرجل ما يميل إليه، ويطلق على الأهل والمال.

(٥) أحرزه: أحميه.

فتخللوه [١] بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه [٢].

وفي رواية أخرى لعبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة، وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن، ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سماك أبوك؟ قال: فأقول: نعم.

قال: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف!

قال: وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قال: قلت: نعم.

قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله فأجيبه فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي وهو آخذ بيده قال: ومعي أدراع قد استلبتها، فأنا أحملها، فلما رآني قال: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك فيَّ، فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك؟ قال: قلت: نعم ها للّه؟

قال: فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قطُّ، أما لكم حاجة في اللَّبن؟ ثم خرجت أمشي بهما، قال ابن هشام: يريد باللبن أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن [٣].

ونلحظ من الروايات السابقة:

١ ـ ما جرى من بلال ـ رضي الله عنه ـ حينما رأى عدوه اللدود أمية بن خلف ـ الذي كان يسومه أقسى وأعنف أنواع العذاب في مكة ـ في يد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ـ أسيراً صرخ بأعلى صوته «لا نجوتُ إن نجا».

إنه موقف من مواقف التشفي من أعداء الله، والتشفي من كبار الكفرة الفجار في الحياة الدنيا نعمة يفرِّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين الذين ذاقوا الذل والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطغاة. قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥].

---

(١) تجللوه: طعنوه وأصابوه.

(٢) البخاري: كتاب الوكالة، باب «إذا وَكَّل المسلم حربياً» رقم (٢٣٠١).

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية للعلي (ص ١٧٨)، وعزاه إلى سيرة ابن هشام (١/ ٦٣١) وقال: سنده صحيح، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

٢ ـ إن فيما جرى لأمية بن خلف من قتل مفزع درساً بليغاً للطغاة المتجبرين، وعبرة للمعتبرين الذين يغترون بقوتهم وينخدعون بجاههم ومكانتهم، فيعتدون على الضعفاء، ويسلبونهم حقوقهم، مآلهم إلى عاقبة سيئة ووخيمة في الآخرة، وقد يمكن الله للضعفاء منهم في الدنيا قبل الآخرة، كما حدث لأمية بن خلف وأضرابه من طغاة الكفر [١]، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القَصَص: ٥].

٣ ـ وفي قول عبد الرحمن بن عوف: «يرحم الله بلالاً، ذهبت أدراعي وفجعني بأسيرَيَّ» [٢] مع ما جرى من بلال من معارضة وانتزاع الأسيرين من يده بقوة الأنصار الذين استنجد بهم دليل على قوة الرباط الأخوي بين الصحابة الكرام [٣].

٤ ـ موقف لأم صفوان بن أمية: قيل لأم صفوان بن أمية بعد إسلامها، وقد نظرت إلى الحباب بن المنذر بمكة: هذا الذي قطع رجل علي بن أمية يوم بدر، قالت: دعونا من ذكر من قتل على الشرك! قد أهان الله علياً بضربة الحباب بن المنذر، وأكرم الله الحباب بضربة علياً، قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا، فقتل على غير ذلك [٤]، وهذا الموقف يدل على قوة إيمانها، ورسوخ يقينها حيث اتضحت لها عقيدة الولاء والبراء، فأصبحت تحب المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها [٤].

وقولها عن ابنها علي: «قد كان على الإسلام حين خرج من ههنا فقتل على غير ذلك» تعني أنه كان ممن عُرف عنهم الإسلام بمكة وخرجوا مع قومهم يوم بدر مكرهين، فلما التقى الصفان فتنوا حينما رأوا قلة المسلمين فقالوا: قد غر هؤلاء دينهم [٥]، فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

جـ ـ مصرع عُبَيْدة بن سعيد بن العاص على يد الزبير:

قال الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ: لقيت يوم بدر عُبَيْدة بن سعيد بن العاص، وهو مدجج [٦] لا يُرى منه إلا عيناه، وهو يُكْنَى أبو [٧] ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكَرِش، فحملت عليه

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٢، ١٥٣).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٤).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٣).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ١٥٤).
(٥) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢١).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥٤)
(٧) كذا لفظ «أبو» ثابت في متن النسخة الأميرية وفي هامشه «أبا» صحت عند بعض رواة صحيح البخاري، =

بالعنزة فطعنته في عينه فمات، قال هشام: فأُخبرت أن الزبير قال: لقد وضعت رجلي عليه، ثم تمطأت، فكان الجهد أن نزعتها، وقد انثنى طرفاها.

قال عروة: فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه، فلما قُبض رسول الله ﷺ أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاه فلما قبض أبو بكر سألها إياه عمر، فأعطاه إياها، فلما قبض عمر أخذها، ثم طلبها عثمان منه، فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل عليٍّ، فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتى قُتل [١].

(هذا الخبر يصوّر لنا دقة الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ في إصابة الهدف، حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرجل مع ضيق ذلك المكان، وكونه قد وزع طاقته بين الهجوم والدفاع، فلقد كانت إصابة ذلك الرجل بعيدة جداً لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي، لكن الزبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق مما يدل على قوة الزبير الجسدية، إضافة إلى دقته ومهارته في إصابة الهدف) [٢].

د ـ مصرع الأسود المخزومي:

قال ابن إسحاق: وقد خر الأسود المخزومي، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنَّه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنَّ [٣] قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض فوقع على ظهره تَشْخُب [٤] رجله دماً نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يُبر يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض [٥].

وقد سأل أمية بن خلف عبد الرحمن بن عوف عن الرجل المُعلم بريشة نعامة في صدره؟ فأجابه عبد الرحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل [٦]، وهذه شهادة من أحد زعماء الكفر، وهذا يعني أنه ـ رضي الله عنه ـ قد أثخن في جيش الأعداء قتلاً وتشريداً [٧].

= وفي نسخة فتح الباري (المطبعة السلفية) «أبا».

(١) انظر: صحيح البخاري، المغازي رقم (٣٩٩٨).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٦٣).

(٣) أطن: أطار.

(٤) تشخب: تسيل بصوت.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٧).

(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٥١).

(٧) المصدر نفسه، (٤/ ١٥٢).

وكان هذا أول من قُتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب ـ ﷺ ـ فقد جاء هذا اللئيم الشرس يتحدى المسلمين، فتصدى له بطل الإسلام حمزة فقضى عليه ولقّن أمثاله من الحاقدين المتكبرين درساً في الصميم [١].

ثانياً: من مشاهد العظمة:

أ ـ استشهاد حارثة بن سُراقة:

عن أنس ـ ﷺ ـ قال: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبرْ وأحتسبْ، وإن تك الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: «ويحك، أَوَهَبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنها جنانٌ كثيرةٌ، وإنه في جنة الفردوس» [٢]، وفي رواية: «يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى» [٣].

ب ـ استشهاد عوف بن الحارث:

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة: أن عوف بن الحارث وهو ابن عفراء [٤] قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «غمْسة يده في العدو حاسراً» [٥]فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل [٦].

وهذا الخبر يدل على قوة ارتباط الصحابة الكرام بالآخرة وحرصهم على رضوان الله تعالى، ولذلك انطلق عوف بن الحارث ـ ﷺ ـ كالسهم وهو حاسر غير متدرع، يثخن في الأعداء حتى أكرمه الله بالشهادة، لقد تغيّرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلّق أفراده بالآخرة، وأصبحوا حريصين على مرضاته بعد أن كان جل همهم أن تتحدث النساء عن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتنشد الأشعار في شجاعتهم [٧].

جـ ـ استشهاد سعد بن خيثمة ثم أبيه، ﷺ:

قال الحافظ ابن حجر: قال موسى بن عقبة، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة وأبوه فخرج سهم سعد، فقال له أبوه: يا بني آثرني اليوم، فقال سعد: يا أبت لو كان

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/ ١٢١).

(٢) البخاري: المغازي، باب فضل من شهد بدراً، رقم (٣٩٨٢).

(٣) الأساس في السنة وفقهها، السيرة النبوية (١/ ٤٧٥).

(٤) عفراء بنت عبيد بن ثعلبة النَّجَّاريَّة شارك أولادها السبعة في غزوة بدر.

(٥) حاسراً: غير لابس الدرع.

(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٤٥) وانظر: الإصابة لابن حجر، ترجمة عوف بن الحارث برقم (٦١٠٧).

(٧) انظر: التربية القيادية (٢/ ٣١).

غير الجنة فعلت، فخرج سعد إلى بدر فقتل بها، وقتل أبوه خيثمة يوم أحد [١].

وهذا الخبر يعطي صورة مشرّفة عن بيوتات الصحابة، في تنافسهم وتسابقهم على الجهاد في سبيل الله تعالى، فهذا سعد بن خيثمة ووالده لا يستطيعان الخروج معاً لاحتياج أسرتهما، وعملهما لبقاء أحدهما، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبة في نيل الشهادة، حتى اضطرا إلى الاقتراع بينهما، فكان الخروج من نصيب سعد ـ ﷺ ـ وكان الابن في غاية الأدب مع والده، ولكنه كان مشتاقاً إلى الجنة، فأجاب بهذا الجواب البليغ: «يا أبت لو كان غير الجنة فعلت» [٢].

د ـ دعاء النبي ﷺ لأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة:

عن عائشة ـ ﷺ ـ في حديثها عن طرح قتلى قريش في القليب بعد معركة بدر: قالت: فلما أمر بهم فسحبوا عرف في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية، وأبوه يسحب إلى القليب، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا حذيفة والله لكأنه ساءك ما كان في أبيك؟» فقال: والله يا رسول الله ما شككت في الله وفي رسول الله، ولكن أبي كان حليماً سديداً ذا رأي، فكنت أرجو أن لا يموت حتى يهديه الله ﷻ إلى الإسلام، فلما رأيت أن قد فات ذلك، ووقع حيث وقع أحزنني ذلك، قال: فدعا له رسول الله ﷺ بخير [٣].

إن هذا الموقف يبيّن قوة التجاذب بين الإيمان في ذروة اليقين، والعاطفة البشرية في قمة الوفاء النبوي، فالإيمان لا يميت المشاعر البشرية، ولكنه يهذبها، فيحوّلها من عصبية جاهلية إلى وفاء لا ينكره المنهج الرباني في تطبيقه العملي، فإيمان أبي حذيفة ـ ﷺ ـ إيمان لا تهزه زلازل الأحداث، فهو إذ يرى أباه يقتل في أشراف قريش كافراً، ويُلقى معهم في قليب بدر؛ يأخذه أسف العاطفة البشرية وفاء لهذا الأب، ويظل أبو حذيفة مزمَّلاً بإيمانه الراسخ رسوخ الأطواد الشامخات، فلا يزيد على أن يعروه الاكتئاب على ما فات أباه من خير يرجوه له بالهداية إلى الإسلام [٤]، ولهذا المقصد النبيل الذي أثار حزن أبي حذيفة دعا له رسول الله ﷺ بخير [٥].

هـ ـ عمير بن أبي وقاص:

لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وعرض عليه جيش بدر ردَّ عمير بن أبي وقاص؛ فبكى

---

(١) الإصابة (٢/ ٢٣، ٢٤)، رقم (٣١١٨).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ٨٧).

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٢٥١، ٢٥٢) ـ أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٤) وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٤) انظر: محمد رسول الله (٣/ ٤٤٦).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٧٤).

عمير فأجازه، فعقد عليه حمائل سيفه، ولقد كان عمير يتوارى حتى لا يراه رسول الله ﷺ فقال سعد: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى، فقلت: مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني ويردني، وأنا أحب الخروج لعلَّ الله أن يرزقني الشهادة [١]، وقد استشهد بالفعل.

المبحث الخامس

الخلاف في الأنفال والأسرى

أولاً: الخلاف في الأنفال:

عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقتْ طائفة في آثارهم يَهزمون ويقتلون، وأكبَّت طائفة على العسكر يَحْوُونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غِرَّة، حتى إذا كان الليل، وفَاءَ الناسُ بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حَوَيْناها وجمعناها، فليس لأحدٍ فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نَفَيْنا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيبَ العدوُّ منه غِرَّة واشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] فقسمها رسول الله ﷺ على فَواق بين المسلمين [٢].

وفي رواية: قال عبادة بن الصامت عن الأنفال حين سُئل عن سورة الأنفال: فينا، معشر أصحاب بدرٍ، نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقُنا، فانتزعه الله تبارك وتعالى من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بَوَاء، يقول: على السواء [٣].

لقد خلّد الله سبحانه وتعالى ذكرى غزوة بدر في سورة الأنفال، وجاءت مفصّلة عن أحداثها وأسبابها ونتائجها، وتعرّضت الآيات الكريمة لعلاج النفس البشرية، وتربيتها على معاني الإيمان العميق، والتكوين الدقيق، فبدأت السورة بتبيان حكم أثر من آثار القتال وهو الغنائم، فبيّنت أن هذه الغنائم للّه وللرسول، فالله هو مالك كل شيء، ورسوله هو خليفته، ثم أمر الله

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٣١٧)، نقل عن صفة الصفوة (١/ ٢٩٤)، والمستدرك (٣/ ١٨٨)، والإصابة (٣/ ٣٥).

(٢) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٢٤)، واللفظ له ورقمه (٢٢٧٦٢) وقال محققو ط/ الرسالة: حسن لغيره. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٣).

(٣) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٢٢)، ورقمه (٢٢٧٤٧)، وقال محققو ط/ الرسالة: حسن لغيره.

المؤمنين ثلاثة أوامر: بالتقوى، وإصلاح ذات البين، والطاعة للّه والرسول ﷺ. وهي أوامر مهمة جداً في موضوع الجهاد، فالجهاد إذا لم ينشأ عن تقوى فليس جهاداً، والجهاد يحتاج إلى وحدة صف، ومن ثم فلا بدّ من إصلاح ذات البين، والانضباط هو الأساس في الجهاد، إذ لا جهاد بلا انضباط، ثم بيّن الله ﷻ أن الطاعة للّه ولرسوله ﷺ علامة الإيمان.

ثم حدّد الله ﷻ صفات المؤمنين الحقيقيين، وهذا الوصف والتحديد مهمان في موضوع الجهاد الإسلامي، لأن الإيمان الحقيقي هو الذي يقوم به الجهاد الإسلامي، لقد حدّد الله ﷻ صفات المؤمنين بأنهم إذا ذكر الله فزعت قلوبهم وخافت وفرقت، وإذا قرىء عليهم القرآن ازداد إيمانهم ونما، والصفة الثالثة: هي التوكل على الله، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الخلق وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، والصفة الرابعة: إقامة الصلاة والمحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، ومن ذلك إسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ. والصفة الخامسة: الإنفاق مما رزقهم الله، وذلك يشمل إخراج الزكاة وسائرالحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عباد الله فأحبُّهم إلى الله أنفعهم لخلقه، ثم بيّن الله ﷻ أن المتصفين بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان، وأن لهم عند الله منازل ومقامات ودرجات في الجنات، وأن الله يغفر لهم السيئات، ويشكر الحسنات، وبهذا تنتهي مقدمة السورة بعد أن رفعت الهمم لكل لوازم الجهاد، ونفت كل عوامل الخذلان من اختلاف على غنائم، أو خلاف بسبب شيء، داعية إلى الطاعة، والارتفاع إلى منازل الإيمان الكامل [1]، قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ① إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ١ ـ ٤].

يقول الأستاذ محمد الأمين المصري: لم تذكر الآيات شيئاً من أعمال المؤمنين في بدر، ولكن ذكرت عتاباً أليماً موجعاً، يحمل المؤمنين على الرجوع إلى أنفسهم والاستحياء من ربهم، وهناك نقاط أرسلت الآيات النقاط عليها وبيّنت نواحي الضعف فيه بياناً جليًّا قويًّا، بتصوير ما في النفوس وصفاً دقيقاً رائعاً تشاهد العين فيه الحركات والخلجات، وكل ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن ليلمس المسافة بينه وبين درجات الإيمان، التي يهفو قلبه للوصول إليها. ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم. ويشعر الذوق السليم هاهنا روعة الأسلوب في عرض

(١) انظر: الأساس في التفسير (٤/ ٢١١٣، ٢١١٤).

العتاب بغير عتاب، ولكنه تصوير ما في النفوس تصويراً يوقن معه العادي من الناس أنه ما كان لمؤمن صحيح الإيمان أن يتّصف بها، ولذلك اقترنت الآيات بتقديم خصائص الإيمان العالية وميزاته الرفيعة التي تصوّر الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أي إسفاف: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

ما ذكرت الآيات عتاباً ولكنها ذكرت واقعاً، وكان ذكر الواقع أبلغ من كل عتاب.

لقد استجاب الصحابة الكرام لهذا التوجيه الرباني، ونزلت الآيات تبيّن لرسول الله ﷺ كيف يتصرّف في الأنفال.

بعد أن أصبحت الغنائم للّه ولرسوله، بيَّن المولى ﷻ كيف توزّع هذه الغنائم؟ قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وهذا بعد ما طهرت قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علام الغيوب في الطاعة، وتمثّلت الآيات؛ فتحققت بمعنى العبودية الخالصة للّه، وهذا الحكم صريح في أن أربعة أخماس ما غنموه مقسوم بينهم، والخمس للّه ولرسوله، وهذا الخمس نفسه مردود فيهم أيضاً، وموزّع على الجهات المذكورة ـ كما ثبت بالسُّنّة.

إن التوجيه التربوي في إرجاء إنزال السؤال عن الغنائم، يشير إلى أن الأحكام الشرعية ينبغي أن يهيأ لها الجو النفسي الروحي المناسب، لتحتل مكانها اللائق في العقل والضمير، فتثبت وتتمكن، وتؤتى أطيب النتائج، إذ يتجلى فيها أكمل الحلول. وهكذا صرف المولى ـ جلّ شأنه ـ عباده المسلمين عن التعلق بالغير أولاً، وبالغنائم ثانياً، ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره، وإتمام نعمته، فلما تفرغوا للخالق وأخلصوا في الجهاد، أكرمهم بالنصر من لدنه، وأسبغ عليهم من فضله بأكثر مما كانوا يودون [(١)]، فعن عبد الله بن عمرو قال: خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه، فلما انتهى إليها قال: «اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكْسُهُم اللهم إنهم جياع فأشبعهم»، ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا، وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتسَوا وشبعوا [(٢)].

---

(١) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ٦١، ٦٢).

(٢) سنن أبي داود (٥/ ٥٢٥) حسنه الألباني، صحيح أبي داود ورقمه (٢٧٤٧).

ومن عدل النبي ﷺ في تقسيم الغنائم إعطاؤه من هذه الغنيمة من تخلف بأمر رسول الله، لمهام أوكلها إليهم، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة وبأجرهم، فكانوا كمن حضرها [١]، فكان ﷺ يراعي ظروف الجنود التي تمنعهم من المشاركة في القتال، لأن الله تعالى لم يكلف عباده شيئاً فوق طاقاتهم. قال تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦] .

ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يكلّف المسلمين فوق طاقتهم، سواء كان ذلك في السلم أو الحرب، وفي غزوة بدر أعفى النبي ﷺ بعض الصحابة؛ لأن ظروفهم الأسرية تتطلب منهم القيام عليها ورعايتها، فقد أعفى عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ من الخروج يوم بدر؛ لأن زوجته رقية كانت مريضة، وبحاجة إلى من يرعى شؤونها، روى البخاري في صحيحه أن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أخبر عن سبب تغيب عثمان ـ رضي الله عنه ـ في غزوة بدر، فقال ـ رضي الله عنه ـ: وأما تَغَيُّبُه عن بدر: فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمَه...» [٢].

وأمر ﷺ أبا أمامة بالبقاء عند أمه؛ حيث كانت مريضة، وهي بحاجة إليه، فعن أبي أمامة بن ثعلبة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أخبرهم بالخروج إلى بدر وأجمع الخروج معه، فقال له خاله أبو بردة بن نيَّار: أقمْ على أمك يا ابن أختي. فقال له أبو أمامة: بل أنت فأقم على أختك، فذكرا ذلك للنبي ﷺ فأمر أبا أمامة بالمقام على أمه، وخرج بأبي بردة، فقدم النبي ﷺ وقد توفيت فصلى عليها [٣]. إن هذه الأخلاق الرفيعة ومراعاة شعور الجنود، وأحوالهم العائلية؛ تولّد قوة ترابط بين القيادة والجنود، وتدخل تحت مفهوم فقه التمكين، وقد مارسه الرسول ﷺ في أعلى صوره.

ومن الصحابة الذين كانت لهم مهمات خاصة أو أصيبوا أثناء الطريق فردّهم الرسول ﷺ:

١ ـ أبو لبابة: استخلفه على المدينة.

٢ ـ عاصم بن عدي: أرسله ﷺ في مهمة لأهل العالية في المدينة.

٣ ـ الحارث بن حاطب: أرسله ﷺ في مهمة إلى بني عمرو بن عوف.

٤ ـ الحارث بن الصِمَّة: وقع أثناء الطريق فكسر فرُدَّ.

٥ ـ خوَّات بن جبير: أصابه في الطريق حجر في ساقه فردّه من الصفراء [٤].

---

(١) انظر: معين السيرة، (ص ٢١٤).

(٢) البخاري: كتاب الفضائل، باب «مناقب عثمان» رقم (٣٦٩٩).

(٣) انظر: الطبراني في الكبير ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد (٣/ ٣١).

(٤) انظر: معين السيرة، (ص ٢١٥).

وكذلك أعطى لورثة الشهداء وذويهم نصيبهم من الغنائم، وبذلك كان للإسلام السبق في تكريم الشهداء ورعاية أبنائهم وأسرهم من قرابة أربعة عشر قرناً [١].

ثانياً: الأسرى:

قال ابن عباس ـ ﷺ ـ: فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنّي أرى أن تمكنّا، فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًّا من عَقِيلٍ فيضرب عنقه، وتمكنّي من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فَهَوَى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوِ ما قلت، فما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدَين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبُك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عَرَضَ عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرِضَ عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة» ـ شجرة قريبة من نبي الله ﷺ ـ وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ [الأنفال: ٦٧] إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا...﴾ [الأنفال: ٦٩] فأحل الله الغنيمة لهم [٢]. وفي رواية عن عبد الله بن مسعود ـ ﷺ ـ قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله قومُك وأهلك، استبقهم واسْتَأْنِ بهم، لعلّ الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذّبوك، فاضرب أعناقهم، قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه ثم أضْرِم عليهم ناراً، قال: فقال العباسُ: قطعت رحمك، قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً، قال: فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، قال: فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليُلينَ قلوب رجالٍ فيه، حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليَشُدُّ قلوب رجال فيه، حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. وإن مثلك يا عمر كمثل موسى، قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]. «أنتم عالة فلا يَنْفَلِتَنَّ منهم أحد إلا بفداء، أو ضربة عنق».

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).

(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم» (٣/ ١٧٦٣).

قال عبد الله بن مسعود: فقلت: يا رسول الله إلا سُهيل بن بيضاء، فإني قد سمعته يذكر الإسلام، قال: فسكت، قال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليّ حجارة من السماء في ذلك اليوم حتى قال: «إلا سهيل بن بيضاء» قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٧] الآية [(١)].

وهذه الآية تضع قاعدة هامة في بناء الدولة حينما تكون في مرحلة التكوين والإعداد، وكيف ينبغي ألا تظهر بمظهر اللين، حين تُرهَب من قِبَل أعدائها، وفي سبيل هذه الكلية يطرح الاهتمام بالجزئيات حتى ولو كانت الحاجة ملحة إليها [(٢)].

وكان سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ لما شرع الصحابة في أسر المشركين كره ذلك، ورأى رسول الله ﷺ الكراهية في وجه سعد لما يصنع الناس، فقال له رسول الله: «والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم» قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان بالقتل أحب إليّ من استبقاء الرجل [(٣)].

كانت معاملة النبي ﷺ للأسرى تحفها الرحمة، والعدل، والحزم والأهداف الدعوية، ولذلك تعدّدت أساليبه، وتنوّعت طرق تعامله عليه الصلاة والسلام، فهناك من قتله، وبعضهم قبل فيهم الفداء، والبعض الآخر منّ عليهم، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المنِّ عليهم.

أ ـ حفظ رسول الله ﷺ لجوار المُطْعم بن عديّ:

قال رسول الله ﷺ في أسارى بدر: «لو كان مُطْعِم بن عدي حيًّا، ثم كلّمني في هؤلاء النَتْنَى لأطلقتهم له» [(٤)].

وهذا الحديث تعبير عن الوفاء والاعتراف بالجميل، فقد كان للمطعم مواقف تذكر بخير، فهو الذي دخل الرسول ﷺ في جواره، حينما عاد من الطائف، كما كان من أشد القائمين على نقض الصحيفة يوم حُصِرَ المسلمون وبنو هاشم [(٥)].

وهذا يدل على قمة الوفاء لمواقف الرجال ولو كانوا مشركين [(٦)].

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٣٨٣، ٣٨٤)، رقم (٣٦٣٢) وانظر كلام الشيخ أحمد شاكر عليه، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٥) وأورده صاحب «مرويات غزوة بدر» (ص ٢٨٩ ـ ٢٩١) فانظر كلامه عليه في هامشه.

(٢) انظر: معين السيرة، (ص ٢٠٩).

(٣) انظر: التربية الجهادية للغضبان (١/ ١٤١).

(٤) أبو داود في الجهاد، باب «المن على الأسير» رقم (٢٦٨٩)، وصححه الألباني في موضعه.

(٥) انظر: معين السيرة، (ص ٢٠٨).

(٦) انظر: التربية القيادية (٣/ ٥٤).

ب ـ مقتل عقبة بن أبي مُعَيط والنضر بن الحارث:

وإذا كان هذا الوفاء لرجل مثل المطعم بن عدي، فلا بدّ من الحزم مع مجرمي الحرب، ورؤوس الفتنة من أمثال: عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث فقد كانا من أكبر دعاة الحرب ضد الإسلام، والمتربصين بالمسلمين الدوائر، فبقاؤهما يعد مصدر خطر كبير على الإسلام، ولا سيما في تلك الظروف الحاسمة التي تمر بها الدعوة الإسلامية، فلو أطلق سراحهما لما تورّعا عن سلوك أي طريق فيه كيد للإسلام وأهله، فَقَتْلُهُمَا في هذا الظرف، ضرورة تقتضيها المصلحة العامة لدعوة الإسلام الفتية [١]، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بقتلهما عندما وصل إلى الصفراء [٢]، أثناء رجوعه للمدينة، فلما سمع عقبة بن أبي معيط بأمر قتله قال: يا ويلي علام أُقتل يا معشر قريش من بين ما هاهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعداوتك للّه ولرسوله» قال: يا محمد مَنُّك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي إن قتلتهم قتلتني، وإن مننت عليهم مننت عليَّ، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم، يا محمد من للصبية؟ قال رسول الله ﷺ: «النار، قدمه يا عاصم فاضرب عنقه» [٣]، فقدمه عاصم فضرب عنقه [٤].

وأما النضر بن الحارث فقد كان من شياطين قريش، وممن يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكَّر فيه بالله، وحذّر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه، إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إليَّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟ [٥].

إن هذا الرجل المتعالي على الله والمتألي عليه، والذي يزعم أنه سينزل أحسن مما أنزل الله، والذي يزعم أنه أحسن حديثاً من محمد؛ لا بدّ لمثل من يمثل هذا التيار ـ وقد أصبح بين يدي رسول رب العالمين ـ لا بدّ أن يُثَأرَ للّه ولرسوله منه، ومن أجل هذا لم يدخله رسول الله ﷺ ضمن نطاق الاستشارة [٦]، وأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه [٧].

---

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى، محمد أحمد باشيل، (ص ١٦٢) بتصرف.

(٢) الصَّفراء: واد كثير النخل والزرع والخير.

(٣) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٨٩)، قال فيه: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح، ونصه في مجمع الزوائد عن ابن عباس: . . وقتل عقبة بن أبي معيط قبل الفداء، قام إليه علي بن أبي طالب فقتله صبرا، قال: من للصِبيَة يا رسول الله؟ قال: «النار».

(٤) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٠).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٣٩، ٤٤٠).

(٦) انظر: التربية القيادية (٣/ ٥٧).

(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٥).

وبمقتل هذين المجرمين؛ تعلم المسلمون أن بعض الطغاة العتاة المعادين لا مجال للتساهل معهم، فهم زعماء الشر وقادة الضلال، فلا هوادة معهم، لأنهم تجاوزوا حد العفو والصفح [١] بأعمالهم الشنيعة، فقد كان هذان الرجلان من شر عباد الله، وأكثرهم كفراً وعناداً وبغياً وحسداً وهجاءً للإسلام وأهله [٢].

جـ - الوصية بإكرام الأسرى جانب من المنهج النبوي الكريم:

ولما رجع ﷺ إلى المدينة فرق الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً» [٣] وبهذه التوصية النبوية الكريمة ظهر تحقيق قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] . فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يحدّثنا عما رأى، قال: كنت في الأسرى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيراً» وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البُرَّ لوصية رسول الله ﷺ [٤].

وهذا أبو العاص بن الربيع يحدّثنا قال: كنت في رهط من الأنصار جزاهم الله خيراً، كنا إذا تعشينا أو تغدّينا آثروني بالخبز، وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إليّ، وكان الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد. وكانوا يحملوننا ويمشون [٥].

كان هذا الخلق الرحيم الذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين، وذكّر به النبي ﷺ أصحابه؛ فاتخذوه خُلقاً وكان لهم طبيعة، قد أثر في إسراع مجموعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر، بُعيد وصول الأسرى إلى المدينة، وتنفيذ وصيّة رسول الله ﷺ، وأسلم معه السائب بن عبيد [٦] بعد أن فدى نفسه، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم وطهرت نفوسهم، وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهليهم، يتحدثون عن محمد ﷺ، ومكارم أخلاقه، وعن محبته وسماحته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى، والإصلاح والخير [٧]، إن هذه المعاملة الكريمة للأسرى شاهد على سمو الإسلام في المجال الأخلاقي، حيث نال أعداء الإسلام من معاملة الصحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق، التي

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٠).

(٢) انظر: البداية ولنهاية (٣/ ٣٠٦).

(٣) المصدر نفسه، (٣/ ٣٠٧).

(٤) مجمع الزوائد (٦/ ٨٦)، وقال: رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن.

(٥) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١١٩).

(٦) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٣/ ٤٧٤).

(٧) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٤٧٣).

تتمثل في خلق الإيثار [١].

د ـ فداء العباس عم النبي ﷺ:

بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فاقتد نفسك، وابني أخويك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بن الحارث بن فهر» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله. قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم». قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه فأنزل الله ﷻ فيه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٠، ٧١].

قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله ﷻ [٢].

هذا والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذه الآية الكريمة وإن كانت نزلت في العباس إلا أنها عامة في جميع الأسرى [٣].

استأذن بعض الأنصار رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه. فقال: «والله لا تذرون منه درهماً» [٤] أي لا تتركوا للعباس من الفداء شيئاً، ويظهر أدب الأنصار مع رسول الله ﷺ في قولهم لرسول الله: ابن أختنا [٥]، لتكون المنة عليهم في إطلاقه، بخلاف لو قالوا: «عمّك» لكانت المنة عليه ﷺ، وهذا من قوة الذكاء وحسن الأدب في الخطاب، وإنما

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي الحميدي (٤/ ١٧٥، ١٧٦).

(٢) انظر: أخرج الإمام أحمد قريباً من هذه الألفاظ برقم (٣٣١٠) ـ جـ/ ٣٥٣. وقال محققو ط/ الرسالة: حسن، . . . وأوردوا رواية أخرجها الحاكم (٣/ ٣٢٤)، وعنه البيهقي في السنن (٦/ ٣٢٢) وهي أقرب الألفاظ لهذه الرواية، وقالوا: وهذا إسناد حسن.

(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (١/ ١٣٢).

(٤) فتح الباري(٧/ ٣٢١)، نقلاً عن المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٥).

(٥) لأن جدة العباس أم عبد المطلب من بني النجار من يثرب.

امتنع النبي ﷺ عن إجابتهم لئلا يكون في الدين نوع محاباة [١].

وهنا يتعلم الأسرى والمسلمون أيضاً درساً بليغاً في عدم محاباة ذوي القربى، بل كان الأمر على خلاف ذلك، فقد أغلا رسول الله الفداء على عمه العباس [٢].

ورجع العباس لمكة، وقد دفع فداءه وابْنَيْ أخويه، وأخفى إسلامه وأصبح يقود جهاز استخبارات الدولة الإسلامية بمكة بمهارة فائقة، وقدرة نادرة حتى انتهى دوره في فتح مكة، فأعلن إسلامه قبلها بساعات [٣].

هـ ـ أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ و رضي الله عنها :

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا» فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها [٤].

وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه، أو وعده، أن يخلي سبيل زينب إليه، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: «كونا ببطن يَأْجَج [٥] حتى تمرَّ بكما زينبُ، فتصحباها حتى تأتيا بها» [٦].

إن أبا العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ﷺ لم يُعرف عنه قط موقف في مقاومة الدعوة بأي لون من ألوانها، وقد كفّ يده ولسانه عن أصحاب رسول الله، وشغله ماله وتجارته وحياؤه من رسول الله ﷺ؛ عن مواقف الشراسة القرشية في مقاومة الدعوة إلى الله، وفي بدر كان أبو العاص صهر رسول الله ﷺ من بين الأسرى الذين لم يسمع لهم في المعركة صوت، ولم يعرف لهم رأي، ولا شوهدت لهم في قتال جولة، وبعد أن بدأت قريش تفدي أسراها، أرسلت السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ وزوجة أبي العاص بمال تفديه به، ومع المال قلادة

---

(١) انظر: سبل الرشاد للصالحي (٤/ ١٣٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).

(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٦٨) بتصرف.

(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٦١)، وأخرجه أحمد ورقمه (٦/ ٢٧٦ ـ ٢٦٤٧٢) ط/ قرطبة، والحاكم في المستدرك (٣/ ٢٣) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يتعقبه الذهبي، وانظر المسند: ط/ الرسالة في موضع الحديث رقم (٢٦٣٦٢).

(٥) اسم مكان على ثمانية أميال من مكة.

(٦) أبو داود في الجهاد، باب «في فداء الأسير بالمال» رقم (٢٦٩٢)، صحيح سنن أبي دادو للألباني، وحسنه.

كانت أمها السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ أهدتها إليها فأدخلتها بها على زوجها لتتحلى بها، فلما رأى رسول الله ﷺ قلادة ابنته رق لها رقة شديدة، إذ كانت هذه القلادة الكريمة مبعث ذكريات أبوية عنده ﷺ، وذكريات زوجية، وذكريات أسرية، وذكريات عاطفية، فالنبي ﷺ أب له من عواطف الأبوة أرفع منازلها في سجل المكارم الإنسانية، وأشرفها في فضائل الحياة، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة المكرمة أسمى مشاعر الرحمة، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطف الحنان والحنين، فتوجه إلى أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ متلطفاً يطلب إليهم في رجاء الأعز الأكرم، رجاء يدفعهم إلى العطاء، ولا يسلبهم حقهم في الفداء، لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق، وهو في أيديهم يملكون التصرف فيه، فقال لهم: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي هو لها».

وهذا أسلوب من أبلغ وألطف ما يسري في حنايا النفوس الكريمة، فيطوّعها إلى الاستجابة الراغبة الراضية رضاء ينم عن الغبطة والبهجة [(١)].

إن هذا الموقف وما يظهر منه من مظاهر الرحمة والعطف منه ﷺ على ابنته يحمل في طياته مقصداً آخر، وهو أنه كان يتألف صهره للإسلام بذلك، لما عرف عنه من العقل السديد والرأي الرشيد، فقد كان ﷺ يثني عليه وهو على شركه بحسن المعاملة [(٢)].

و ـ أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي بين الرحمة والحزم النبوي:

كان محتاجاً ذا بنات قال: يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال فامنن عليّ، فمنّ عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحداً، فقال أبو عزة يمدح رسول الله ﷺ على ذلك:

مَنْ مُبْلِغٌ عني الرسول محمداً ... بأنك حقٌّ والمليكُ حميد
وأنت امرؤٌ بُوِّئتَ فينا مباءةً [(٣)] ... لها درجاتٌ سهلة وصعود
فإنك من حاربته لمحارَبٌ ... شقيٌّ ومن سالمته لسعيد
ولكن إذا ذكّرتُ بدراً وأهله ... تأوَّبُ ما بي، حسرة وقعود

قال ابن كثير: ثم إن أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد الرسول عليه، ولعب المشركون بعقله، فرجع إليهم فلما كان يوم أحد أسر أيضاً، فسأل النبي ﷺ أن يمنّ عليه أيضاً فقال النبي ﷺ: «لا أدعك تمسح عارضيك وتقول خدعت محمداً مرتين» ثم أمر به فضربت عنقه [(٤)].

---

(١) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٣/ ٤٨٠ ـ ٤٨٧) بتصرف.
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٨٣).
(٣) مباءة: مكانة رفيعة.
(٤) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١٣).

فكان النبي ﷺ به رحيماً وعفى عنه، وأطلق سراحه بدون فداء، لما ذكر أبو عزة فقره وما لديه من بنات يعولهن، ولكنه لم يف لرسول الله ﷺ بما عاهده عليه من لزوم السلم، وعدم إثارة الحرب ضده، فوقع أسيراً في معركة أُحد، فكان موقف النبي ﷺ منه الحزم، فأمر بضرب عنقه.

ز - سهيل بن عمرو ووقوعه في الأسر، وماذا قالت سودة رضي الله عنها :

قال عبد الرحمن بن أسد بن زرارة - رضي الله عنه -: «قُدم بالأسارى حين قدم بهم المدينة، وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء - وذلك قبل أن يضرب الحجاب - قالت سودة: فوالله إني لعندهم إذ أتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتى بهم، فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة، ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم ألا متم كراماً... فما انتبهت إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت: «يا سودة أعلى الله ورسوله تحرضين» فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت [(١)].

وفد مِكْرَز بن حفص الأَخْيَف في فداء سهيل بن عمرو، فلما فاوض المسلمين وانتهى إلى رضائهم، قالوا: هات الذي لنا، قال لهم مِكْرَز بن حفص: اجعلوا رجلي مكان رجله وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه، فخلوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزاً عندهم. وجاء في حديث مرسل أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال لرسول الله ﷺ: دعني أنزع ثَنيَّة سهيل بن عمرو، يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً» [(٢)] ثم قال رسول الله ﷺ لعمر: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه» [(٣)].

قال ابن كثير: وهذا هو المقام الذي قامه سهيل بمكة حين مات رسول الله ﷺ وارتد العرب، ونجم النفاق بالمدينة وغيرها، فقام بمكة فخطب في الناس وثبتهم على الدين الحنيف [(٤)] فقد قال في ذلك: «يا معشر قريش لا تكونوا آخر الناس إسلاماً وأولهم ردة، من رابَنا ضربنا عنقه» [(٥)].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لمحمد الصوياني (٢/ ٢٠٠)، وسنده صحيح، وانظر: مرويات غزوة بدر، وقد عزاه للحاكم (٣/ ٢٢)، وذكر تصحيح الحاكم له وموافقة الذهبي، كما صحح سند ابن إسحاق في روايته للقصة (ص ٢٩٩، ٣٠٠).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١١)، وقال ابن كثير مرسل بل معضل.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣١١).

(٤) المصدر نفسه، (٣/ ٣١١).

(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٨١).

فقد أبى رسول الله ﷺ أن ينزع ثنية سهيل، ورأى أن ذلك من باب التمثيل وتشويه خلقة الإنسان، وقال لعمر: «لا أمثل به فيمثل الله بي، وإن كنت نبياً» وهذا نموذج من منهج رسالته ﷺ وضعه ليكون نبراساً لأمته في انتصاراتها على أعدائها [١].

حـ ـ التعليم مقابل الفداء:

قال ابن عباس: كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة [٢]. وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يُعلم عشرة من الغلمان يفدى نفسه [٣]، وقبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء، في ذلك الوقت، الذي كان فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العَلق: ١ ـ ٤] واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنّة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي ﷺ أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق في هذا للإسلام [٤].

طـ ـ حكم الأسرى:

إن حكم الأسرى في الإسلام مفوض إلى رأي الإمام ليختار حكماً من أربعة، وعلى الإمام أن يراعى مصلحة المسلمين العامة، والأحكام الأربعة هي:

١ ـ **القتل**: وقد قتل رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث.

٢ ـ **المن**: وهو إطلاق الأسير بدون مقابل، وهذا ما فعله رسول الله مع أبي عزة الجمحي.

٣ ـ **الفداء**: إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغ من المال، وهذا ما حدث مع العباس عم النبي ﷺ، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب وغيرهم.

٤ ـ **الاسترقاق**: وقد حكم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ في يهود بني قريظة أن يقتل المحاربون، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء [٥]

---

(١) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٤٧٤).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٦١).

(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٤).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٦٤، ١٦٥).

(٥) انظر: غزوة بدر الكبرى، (ص ١٠١).

المبحث السادس

نتائج غزوة بدر ومحاولة اغتيال النبي ﷺ

أولاً: نتائج غزوة بدر:

١ - كان من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وما جاورها، وأصبح من يريد أن يغزو المدينة أو ينال من المسلمين؛ عليه أن يفكر ويفكر قبل أن يقدم على فَعلته، وتعززت مكانة الرسول ﷺ في المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها. ولم يعد المتشككون في الدعوة الجديدة والمشركون في المدينة يتجرءون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام، لذا ظهر النفاق والمكر والخداع، فأعلن فريق منهم إسلامهم ظاهراً أمام النبي ﷺ وأصحابه، فدخلوا في عداد المسلمين، وأبقوا على الكفر باطناً، فظلوا في عداد الكفار، فلا هم مسلمون مخلصون في إسلامهم، ولا هم كافرون ظاهرون بكفرهم وعداوتهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النِّساء: ١٤٣] . ومن أجل هذا الموقف المتذبذب، شنّع الله عليهم، وسمّع بهم في كثير من آياته، وتوعدهم بأشد أنواع العذاب قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النِّساء: ١٤٥] .

ومن نتائج موقعة بدر: ازدياد ثقة المسلمين بالله سبحانه وتعالى، وبرسوله الكريم ﷺ، واشتداد ساعدهم وقوتهم، ودخول عدد كبير من مشركي قريش في الإسلام، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الذين كانوا لا يزالون في مكة، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله، واطمأنت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب، فازدادوا إيماناً على إيمانهم وثباتاً على عقيدتهم.

وإلى جانب ذلك، فقد كسب المسلمون مهارة عسكرية، وأساليب جديدة في الحرب، وشهرة واسعة في داخل الجزيرة العربية وخارجها، إذ أصبحوا قوة يحسب لها حسابها في بلاد العرب، فلا تهدد زعامة قريش وحدها، بل زعامة جميع القبائل العربية المنتشرة في مختلف الأصقاع والأماكن، كما أصبح للدولة الجديدة مصدر للدخل من غنائم الجهاد، وبذلك انتعش حال المسلمين المادي والاقتصادي، بما أفاء الله عليهم من غنائم بعد بؤس وفقر شديدين، داما تسعة عشر شهراً [١].

٢ - أما قريش، فكانت خسارتها فادحة، فإضافة إلى أن مقتل أبي جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وغيرهم من زعماء الكفر الذين كانوا من أشد القرشيين شجاعة

---

(١) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، (ص ٢٧٤، ٢٧٥).

وقوة وبأساً، لم يكن خسارة حربية لقريش فحسب، فإنه كان خسارة معنوية أيضاً، ذلك أن المدينة لم تعد تهدد تجارتها فقط، بل أصبحت تهدد أيضاً سيادتها ونفوذها في الحجاز كله [١]، كان خبر الهزيمة على أهل مكة كالصاعقة، ولم يصدقوا ذلك في بداية الأمر. قال ابن إسحاق رحمه الله: «وكان أول من قدم بمكة بمصاب قريش الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعي فقالوا له: ما وراءك؟

قال: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونُبيه ومنبَّه ابنا الحجاج، وأبو البَخْتَريّ بن هشام، فلما جعل يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أمية: والله إن يعقل هذا؛ فسلوه عنّي؟

فقالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟

قال: هو ذاك جالس في الحجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا» [٢].

وهذا أبو رافع مولى رسول الله ﷺ يقص علينا أثر خبر هزيمة قريش على أبي لهب ـ لعنه الله ـ حيث قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمت أم الفضل وأسلمتُ، وكان العباس يهاب قومه، ويكره أن يخالفهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب ـ عدو الله ـ قد تخلف عن بدر، فبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة...، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كَبَتَهُ الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزّة.

قال: كنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعمل القداح وأنْحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها، أنحت القداح، وعندي أم الفضل (زوجة العباس بن عبد المطلب) جالسة، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه بشَرٍّ حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال أبو لهب: هلمّ إليّ فعندك لعمري الخبر، قال: جلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقودوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وأيْمُ الله مع ذلك ما لُمْتُ الناس: لقينا رجالاً بيضاً على خيل بُلق بين السماء والأرض، والله ما تُلِيق [٣] شيئاً، ولا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: فرفعت طُنُب الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة،

---

(١) المصدر السابق نفسه، (ص ٣٧٥، ٣٧٦).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٥٧).

(٣) تُلِيق: أي تُبْقي.

قال: وثاورته، فاحتملني وضرب بي الأرض، ثم برك عليّ يضربني - وكنت رجلاً ضعيفاً - فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فَلعتْ [١] في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام مولياً ذليلاً، ثم مات بعد سبع ليالٍ بالعَدَسَة [٢] فقتلته [٣].

وأم الفضل بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب، وأخت ميمونة أم المؤمنين، وخالة خالد بن الوليد، وهي أول امرأة أسلمت بعد خديجة [٤] رضي الله عنهن.

لقد تركت غزوة بدر في نفوس أهل مكة المشركين كمداً وأحزاناً وآلاماً بسبب هزيمتهم، ومن فُقدوا وأُسروا، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بعلة ومات، وهذا أبو سفيان فقد ابناً له وأُسر له ابن آخر، وما من بيت من بيوت مكة إلا وفيه مناحة، على قتل عزيز أو قريب، أو أسر أسير، فلا عجب أن كانوا صمموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر حتى أن بعضهم حرّم على نفسه الاغتسال [٥]، حتى يأخذ بالثأر ممن أذلوهم، وقتلوا أشرافهم وصناديدهم، وانتظروا يترقبون الفرصة للقاء المسلمين، والانتصاف منهم، فكان ذلك في أحد [٦].

٣ - أما اليهود، فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في بدر، وأن تقوى شوكتهم فيها، وأن يعزّ الإسلام، ويظهر على دينهم، ويكون لرسوله دونهم الحُظوة والمكانة، فصمموا على نقض العهد الذي عاهدوا عليه النبي ﷺ عندما قدم المدينة، وأظهروا عداوتهم التي كانت كامنة في نفوسهم، وأخذوا يجاهرون بها القول ويعلنون، ثم راحوا يكيدون للإسلام ولرسوله، ويعملون للقضاء عليه بكل الوسائل المتاحة لديهم [٧]، وبدأوا يتحرشون بالنبي ﷺ والمسلمين، وما كان النبي ﷺ ليخفى عليه شيء من ذلك، فقد كان يراقبهم عن حذر ويقظة، حتى استخفوا بالمقررات الخلقية، والحرمات التي يعتز بها المسلمون، واستعلنوا بالعداوة، فلم يكن بدّ من حربهم وإجلائهم عن المدينة [٨].

ثانياً: محاولة اغتيال النبي ﷺ وإسلام عمير بن وهب (شيطان قريش):

قال عروة بن الزبير: جلس عُمَير بن وهب الجُمَحي مع صفوان بن أمية، بعد مصاب أهل

---

(١) فَلَعَتْ: فَلَعَ: يعني شَقَّ.

(٢) العدسة: قرحة قاتلة كالطاعون. وقد عدس الرجل: إذا أصابه ذلك.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٥٨).

(٤) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين كركر، (ص ١٦٢).

(٥) هو أبو سفيان بن حرب نذر ألا يمس رأسه من ماء جنابة حتى يغزو المسلمين.

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧١).

(٧) انظر: التاريخ السياسي العسكري، (ص ٢٧٤).

(٨) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧١).

بدر ـ في الحِجْر ـ بيسير، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء [١]، وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أُسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومُصابهم، فقال صفوان: «والله ما في العيش بعدهم خير».

قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دينٌ عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة [٢] بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي فيهم علَّة [٣]، ابني أسير في أيديهم.

قال: فاغتنمها صفوان بن أمية، فقال: عليَّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم [٤] ما بقوا، لا يسعني شيء، ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم عليَّ شأني وشأنك.

قال: أفعل.

قال: ثم أُمِرَ عمير بسيفه، فشُحذ وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم في عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرٍّ، وهو الذي حرش بيننا، وحَزَرَنا للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه. قال: «فأدخله عليّ» قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة [٥] سيفه في عنقه فَلَبَّبَه [٦] بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون.

ثم دخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه؛ قال: «أرسله يا عمر، ادْنُ يا عمير».

فدنا ثم قال: إِنْعَمُوا صباحاً، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: «أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة» [٧].

---

(١) عناء: التعب.
(٢) الضيعة: الضياع والتشتت.
(٣) العلة: السبب.
(٤) أواسيهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم.
(٥) حمالة السيف: ما يربط به السيف على الجسم.
(٦) لببه: قيده.
(٧) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٩).

فقال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد.

فقال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال: «فما بال السف في عنقك؟» قال: قبّحها الله من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً.

قال: «أصدُقْني ما الذي جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمَّل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائلٌ بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد للّه الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.

فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا أسيره» ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله ـ ﷻ ـ وأنا أحب أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ وإلى الإسلام، لعلّ الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم. قال: فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تُنْسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عن الرُّكبان، حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف أن لا يكلمة أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً [١].

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١ ـ حِرْص المشركين على التصفية الجسدية للدعاة، فهذا صفوان بن أمية، وعمير بن وهب يتفقان على قتل النبي ﷺ، وهذا يرشدنا إلى أن أعداء الدعوة قد لا يكتفون برفض الدعوة، والتشويش عليها، وصد الناس عنها، بل يريدون اغتيال الدعاة، وتدبير المؤامرات لقتلهم، وقد يستأجرون المجرمين لتنفيذ هذا الغرض الخسيس [٢]، وقد يستغل الأغنياء المترفون من أعداء الدعوة حاجة الفقراء وفقرهم فيوجهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة مآربهم، وإن أدى ذلك إلى هلاكهم، فها هو صفوان قد استغل فقر عمير، وقلة ذات يده ودِيْنَه ليرسله إلى هلاكه [٣].

٢ ـ ظهور الحس الأمني الرفيع الذي تميّز به الصحابة ـ ﷺ ـ فقد انتبه عمر بن الخطاب

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٦٠).

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٥٩).

(٣) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، (ص ٨٢).

لمجيء عمير بن وهب وحذّر منه، وأعلن أنه شيطان ما جاء إلا لشر، فقد كان تاريخه معروفاً لدى عمر، فقد كان يؤذي المسلمين في مكة، وهو الذي حرّض على قتال المسلمين في بدر، وعمل على جمع معلومات عن عددهم، ولذلك شرع عمر في أخذ الأسباب لحماية الرسول ﷺ، فمن جهته فقد أمسك بحمالة سيف عمير الذي في عنقه بشدة فعطله عن إمكانية استخدام سيفه للاعتداء على الرسول ﷺ، وأمر نفراً من الصحابة بحراسة النبي ﷺ.

٣ ـ الاعتزاز بتعاليم هذا الدين، فقد رفض ﷺ أن يتعامل بتحية الجاهلية، ولم يرد على تحية عمير حين قال له: إنْعَمُوا صباحاً، وأخبره بأنه لا يحيي بتحية أهل الجاهلية لأن الله تعالى أكرم المسلمين بتحية أهل الجنة.

٤ ـ سمو أخلاق النبي ﷺ، فقد أحسن إلى عمير، وتجاوز عنه، وعفا عنه، مع أنه جاء ليقتله [(١)]، بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عمير، وقال لأصحابه: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره» [(٢)].

٥ ـ قوة إيمان عمير، فقد قرر أن يواجه مكة كلها بالإسلام، وقد أذن له رسول الله ﷺ وفعل، وواجه وتحدى، وعاد أدراجه إلى المدينة، وأسلم على يديه ناس كثير، وكان حين تُعد الرجال يطرحه عمر ـ رضي الله عنه ـ ممن يزن عنده ألف رجل، وكان أحد الأربعة الذين أمد بهم أمير المؤمنين عمر، عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهم ـ الذين كان كل واحد منهم بألف [(٣)].

المبحث السابع

بعض الدروس والعبر والفوائد من غزوة بدر

أولاً: حقيقة النصر من الله تعالى:

إن حقيقة النصر في بدر كانت من الله تعالى. فقد بيّن سبحانه وتعالى أن النصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفَال: ١٠].

في هاتين الآيتين تأكيد على أن النصر لا يكون إلا من عند الله ﷻ والمعنى: ليس النصر

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، (ص ٨٣).

(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٦٠).

(٣) انظر: التربية القيادية (٣/ ٧٣).

إلا من عند الله دون غيره، و(العزيز) أي: ذو العزة التي لا ترام [١]، و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرّعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى [٢].

ويستفاد من هاتين الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه مع التأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون، لكن يجب أن لا يغتروا بها، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب، حتى يمدهم الله بنصره وتوفيقه. ثم بيّن سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين، وأن النصر الذي كان في بدر، وقتلهم المشركين، ورمى النبي ﷺ المشركين بالتراب يوم بدر، إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أولاً وبفضله ومعونته.

وبهذه الآية الكريمة يربي القرآن المسلمين، ويعلمهم الاعتماد عليه. قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

ولما بيّن سبحانه وتعالى أن النصر كان من عنده، وضح بعض الحكَم من ذلك النصر، قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٧ ـ ١٢٨].

وأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتذكروا دائماً تلك النعمة العظيمة؛ نعمة النصر في بدر، ولا ينسوا من أذهانهم كيف كانت حالتهم قبل النصر، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

ثانياً: يوم الفرقان:

سُمّي يوم بدر يوم الفرقان، ولهذه التسمية أهمية عظيمة في حياة المسلمين، وقد تحدث الأستاذ سيد قطب عن وصف الله تعالى ليوم بدر بأنه يوم الفرقان في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

فقال: كانت غزوة بدر ـ التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده ـ فرقاناً بين الحق والباطل ـ كما يقول المفسرون إجمالاً ـ وفرقاناً بمعنى أشمل وأدق وأوسع وأعمق كثيراً.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٣)، نقلاً عن حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (١/ ٩٧ ـ ١٠٥).

كانت فرقاناً بين الحق والباطل فعلاً... ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض، وقامت عليه فطرة الأحياء والأشياء... الحق الذي يتمثل في تفرُّد الله سبحانه بالألوهية، والسلطان والتدبير والتقدير، وفي عبودية الكون كله سمائه وأرضه، أشيائه وأحيائه، لهذه الألوهية المتفردة، ولهذا السلطان المتوحد، ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك، والباطل الزائف الطارىء الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك، ويغشى على ذلك الحق الأصيل، ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله بما تشاء، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء، فهذا الفرقان الكبير الذي تمّ يوم بدر، حيث فرق بين ذلك الحق الكبير، وهذا الباطل الطاغي، وزَيَّل بينهما فلم يعودا يلتبسان.

لقد كانت فرقاناً بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل، الواسع الدقيق العميق، على أبعاد وآماد: كانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير.. فرقاناً بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور، وفي الخلق والسلوك، وفي العبادة والعبودية، وبين الشرك في كل صوره، التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص، والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات، وكانت فرقاناً بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر كذلك. فرقاناً بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء، وللقيم والأوضاع، وللشرائع والقوانين، وللتقاليد والعادات... وبين الرجوع في هذا كله للّه الواحد الذي لا إله غيره، ولا حاكم دونه، ولا مشرع إلا إياه، فارتفعت الهامات لا تنحني لغير الله، وتساوت الرؤوس فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه، وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة.

وكانت فرقاناً بين عهد في تاريخ الحركة الإسلامية، عهد المصابرة والصبر، والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع، والإسلام بوصفه تصويراً جديداً للحياة، ومنهجاً جديداً للوجود الإنساني، ونظاماً جديداً للمجتمع، وشكلاً جديداً للدولة، بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان في الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته، ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته [1].

إلى أن قال: وأخيراً فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل بمدلول آخر، ذلك المدلول الذي يوحى به قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧ ـ ٨]. لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين إنما خرجوا يريدون عير أبي سفيان واغتنام القافلة، فأراد الله لهم غير ما أرادوا. أراد لهم أن تفلت منهم

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٢١، ١٥٢٢).

قافلة أبي سفيان (غير ذات الشوكة) وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشوكة) وأن تكون معركة وقتالاً وأسراً، ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة، وقد قال الله سبحانه إنه صنع هذا: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة.. إن الحق لا يحق وإن الباطل لا يبطل - في المجتمع الإنساني - بمجرد البيان النظري للحق والباطل، ولا بمجرد الاعتقاد النظري بأن هذا حق وهذا باطل، إن الحق لا يحق، وإن الباطل لا يبطل، ولا يذهب من دنيا الناس، إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا، ويهزم جند الباطل ويندحروا... فهذا الدين منهج حركي واقعي، لا مجرد نظرية للمعرفة والجدل أو لمجرد الاعتقاد السلبي!

ولقد حق الحق، وبطل الباطل بالموقعة، وكان هذا النصر العملي فرقاناً واقعياً بين الحق والباطل بهذا الاعتبار، الذي أشار إليه قول الله تعالى في معرض بيان إرادته - سبحانه - من وراء المعركة، ومن وراء إخراج الرسول ﷺ من بيته بالحق، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ولقاء الفئة ذات الشوكة.

ولقد كان هذا كله فرقاناً بين منهج هذا الدين ذاته تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم... وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس بعض المسلمين! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين.

وهكذا كان يوم بدر ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] . بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة. «والله على كل شيء قدير».

وفي هذا اليوم مثل من قدرته على كل شيء، مثل لا يجادل فيه مجادل، ولا يماري فيه ممار.. مثل من الواقع المشهود الذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله، وأن الله على كل شيء قدير [(١)].

ثالثاً: الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمة صوراً مشرقة في الولاء والبراء، وجعلت خطاً فاصلاً بين الحق والباطل، فكانت الفرقان النفسي والمادي، والمفاصلة التامة بين الإسلام والكفر، وفيها تجسدت هذه المعاني فعاشها الصحابة واقعاً ماديًّا وحقيقة نفسية، وفيها تهاوت القيم الجاهلية، فالتقى الابن بأبيه والأخ بأخيه:

١ - كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة في صف المسلمين، وكان أبوه عتبة وأخوه الوليد وعمه

(١) انظر: في ظلال القرآن، بتصرف (٣/ ١٥٢٣، ١٥٢٤).

شيبة في صف المشركين، وقد قتلوا جميعاً في المبارزة الأولى.

٢ ـ كان أبو بكر الصديق في صف المسلمين... وكان ابنه عبد الرحمن في صف المشركين.

٣ ـ كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صف المشركين ثم وقع أسيراً في يد أحد الأنصار، فقال مصعب للأنصاري: شدّ يدك به فإن أمه ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك. تلك كانت حقائق وليس مجرد كلمات: إنه أخي دونك [١]، إنها القيم المطروحة لتقوم الإنسانية على أساسها، فإذا العقيدة هي آصرة النسب والقرابة وهي الرباط الاجتماعي [٢].

٤ ـ كان شعار المسلمين في بدر (أَحَد... أَحَد) وهذا يعني أن القتال في سبيل عقيدة تتمثل في العبودية للإله الواحد، فلا العصبية ولا القبلية، ولا الأحقاد والضغائن، ولا الثأر هو الباعث والمحرك، ولكنه الإيمان بالله وحده.

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر، واحدة في مضمونها [٣]، وللإيمان فقه عظيم، ومن هذا الفقه حينما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، هاجر إليها كل من استطاع ذلك من المسلمين إلى مكة، وحبس من كان مضطهداً ولم يستطع ذلك، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صف المشركين منهم: عبد الله بن سهيل بن عمرو، والحارث بن زمعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن مُنبه.

فأما عبد الله بن سهيل بن عمرو فقد انحاز من صف المشركين إلى رسول الله ﷺ، فشهد المعركة، وكان أحد الصحابة الذين نالوا هذا الشرف العظيم [٤].

وأما الآخرون فلم يفعلوا ذلك، وشهدوا المعركة في صف المشركين وقد أصيبوا جميعاً [٥] فقتلوا تحت راية الكفر، فنزل في حقهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النِّساء: ٩٧].

قال ابن عباس: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة ـ وكانوا يستخفون بالإسلام ـ فأخرجهم

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٧).
(٢) انظر: معين السيرة، (ص ٢١٣).
(٣) المصدر نفسه، (٢١٣).
(٤) المصدر نفسه، (ص ٢١٧).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٥٣).

المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمين: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا على الخروج فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إنهم لم يعذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صف المؤمنين متوافرة، ولم يكن الفاصل كبيراً بين الصفين، ولن يعدموا ـ لو أرادوا ـ الفرصة في الانتقال إلى رسول الله ﷺ كما فعل عبد الله بن سهيل [١].

إن للإيمان مستلزمات تعبر عن صدقه وقوته، ومن مستلزماته استعلاؤه على كل القيم مما سواه، فإذا كان كذلك كان لصاحبه الأثر الفعال، والقوة الفاعلة في بناء الحق والخير الذي أراده الله، إن الإيمان يصبغ السلوك، فإذا به يشع من خلال الحركة والجهد، ومن خلال الكلمة والابتسامة، ومن خلال السمت والانفعال، ولذا لم يعذر الذين كانوا في صف المشركين لأن الإيمان الذي ادعوه لم توجد له مستلزمات فلم يؤت ثماره [٢].

ولهذا الفهم العميق لفقه الإيمان ضرب الصحابة الكرام في بدر مُثلاً عليا لصدق الإيمان، التي تدل على أنهم آثروا رضاء الله ورسوله على حب الوالد والولد والأهل والعشيرة، فلا يعجب المسلم من ثناء الله تعالى على هذه المواقف الصادقة في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

رابعاً: المعجزات التي ظهرت في بدر وما حولها:

من المعجزات التي ظهرت على يدي رسول الله ﷺ في بدر، إخباره عن بعض المغيبات، ومن المعلوم أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير آية من كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: الآية ٦٥].

وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومن المعلوم أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يعلمون الغيب ولا اطلاع لهم على شيء منه، فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

---

(١) انظر: معين السيرة، (ص ٢١٧).

(٢) المصدر نفسه، (ص ٢١٨).

وكما جاءت الأدلة تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اختص نفسه بمعرفة علم الغيب، وأنه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلة تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل، فأودعهم ما شاء الله من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجنّ ٢٦ ـ ٢٧].

فنخلص من ذلك إلى: أن ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيبات فبوحي من الله تعالى، وهو إعلام الله ﷻ لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوت نبوّته وصحة رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺ باطلاع الله له على المغيبات [١]، وكان لأحداث غزوة بدر نصيب من تلك المعجزات الغيبية، منها:.

١ ـ قتل أمية بن خلف:

فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: انطلق سعد بن معاذ معتمراً، قال: فنزل على أُمية بن خلف أَبي صفوان، وكان أُمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية لسعد: ألا تنتظر حتى إذا انتصف النهار، وغفل الناس انطلقت فطفت؟ فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟، فقال سعد: أنا سعد. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمناً وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ فقال: نعم، فتلاحيا [٢] بينهما. فقال أُمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت، لأَقْطَعَنَّ متجرك بالشام، قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك، وجعل يُمسكه، فغضب سعد فقال: دعنا عنك، فإني سمعت محمداً ﷺ يزعم أنه قاتلُك. قال: إياي؟ قال: نعم. قال: والله ما يكذب محمد إذا حدّث. فرجع إلى امرأته، فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي، قالت: فوالله ما يكذب محمد. قال: فلما خرجوا إلى بدر وجاء الصريخ؛ قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: فأراد أن لا يخرج فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي، فسر يوماً أو يومين، فسار معهم فقتله الله [٣].

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٤٥٣).

(٢) تلاحيا: تلاوما وتنازعا. انظر: النهاية (٤/ ٢٤٣).

(٣) البخاري: كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام» رقم (٣٦٣٢).

٢ ـ مصارع الطغاة:

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة فتراءينا الهلال، وكنت رجلاً حديد البصر [١]، فرأيته وليس أحد يزعم أنه رآه غيري. قال: فجعلت أقول لعمر: أما تراه؟ فجعل لا يراه. قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستلق على فراشي. ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر؛ فقال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: «هذا مصرع فلان غداً، إن شاء الله»، قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ [٢].

٣ ـ إخبار العباس بن عبد المطلب بالمال الذي دفنه، وإعلام عمير بن وهب بالحديث الذي حدث بينه وبين صفوان:

ومن ذلك لما طلب رسول الله ﷺ من عمه دفع الفداء، وأجابه العباس: ما ذاك عندي يا رسول الله، فقال له: «أين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم»، قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا الأمر ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل. وما حدَّث به عمير بن وهب لما جاء متظاهراً بفداء ابنه، وهو يريد قتل النبي ﷺ باتفاق مع صفوان بن أمية، فقد أنبأه نبأ المؤامرة، فكانت سبباً في إسلامه وصدق إيمانه [٣].

ومن المعجزات التي ظهرت أيضاً: ما ذكر ابن القيم في زاد المعاد: أن سيف عُكَّاشة بن محصن انقطع يومئذٍ، فأعطاه النبي ﷺ جذلاً من حطب، فقال: «دونك هذا» فلما أخذه عكاشة وهزَّه، عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيض، فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل في الردة أيام أبي بكر [٤]. وقال رفاعة بن رافع: رُميتُ بسهم يوم بدر، ففقئت عيني فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيء [٥].

قال الدكتور أبو شهبة: وما ينبغي لأحد أن يزعم أن المعجزات الحسية لا ضرورة إليها بعد القرآن، فها هي قد بدت آثارها واضحة جلية في إسلام البعض، وتقوية يقين البعض الآخر، وإثبات أنه نبي يوحى إليه، فقد أخبر بمغيبات انتفى في العلم بها كل احتمال إلا أنه خبر السماء، وغير خفي ما يحدثه من انقلاب عود أو عرجون في يد صاحبه سيفاً بتاراً في إيمانه وتقوية يقينه، وجهاده به جهاداً لا يعرف التردد أو الخور، وحرصه البالغ على أن يخوض

---

(١) حديد البصر: أي نافذ.

(٢) مسلم رقم (٢٨٧٣).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).

(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦) وذكر المحقق أن ابن إسحاق ذكرها من غير سند.

(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦) والأثر فيه خلاف بين التصحيح والتضعيف.

المعارك بسيف خرقت به العادة، وصار مثلاً وذكرى في الأولين والآخرين [١].

خامساً: حكم الاستعانة بالمشرك:

في غزوة بدر في الأحداث التي سبقتها، أراد مشرك أن يلحق بجيش المسلمين، وطلب من النبي ﷺ الموافقة على قبوله معهم والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه، فقال ﷺ: «ارجع فلن أستعين بمشرك» [٢] فالحديث يبيّن أن القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلمين في الأمور العامة، ولهذه القاعدة استثناء، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروط معينة وهي: تحقق المصلحة أو رجحانها بهذه الاستعانة، وأن لا يكون ذلك على حساب الدعوة ومعانيها، وأن يتحقق الوثوق الكافي بمن يستعان به، وأن يكون تابعاً للقيادة الإسلامية، لا متبوعاً ومقوداً فيها لا قائداً لها، وأن لا تكون هذه الاستعانة مثار شبهة لأفراد المسلمين، وأن تكون هناك حاجة حقيقية لهذه الاستعانة وبمن يُستعان به، فإذا تحققت هذه الشروط جازت الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقق لم تجز الاستعانة، وفي ضوء هذا الأصل رفض رسول الله ﷺ اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عير قريش، إذ لا حاجة به أصلاً، وفي ضوء الاستثناء وتحقق شروطه استعان النبي ﷺ بالمشرك عبد الله بن أريقط الذي استأجره النبي ﷺ وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة ليدلهما على الطريق إليها.. وهكذا على هذا الاستثناء وتحقق شروطه قبل ﷺ حماية عمه أبي طالب له، كما قبل جوار أو إجارة المطعم بن عدي له عند رجوعه عليه الصلاة والسلام من الطائف، وكذلك قبول الصحابة الكرام جوار من أجارهم من المشركين ليدفع هؤلاء الأذى عمن أجاروهم [٣]، وضبط هذه القاعدة مع فهم شروط الاستثناء في واقع الحياة يحتاج إلى فقه وإيمان عميق.

سادساً: حذيفة بن اليمان، وأسيد بن الحضير - رضي الله عنهما -:

١ - حذيفة بن اليمان ووالده:

قال حذيفة: ما منعنا أن نشهد بدراً إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله ﷺ، فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا: ما نريده إنما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرن إلى المدينة ولا تقاتلوا مع محمد ﷺ، فلما جاوزناهم أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ما قالوا وما قلنا لهم فما ترى؟ قال: «نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم»، فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدراً [٤].

هذه صورة مشرقة في حرص النبي ﷺ لحفظ العهود، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٣٥٥).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٤٤، ١٤٥).

(٤) انظر: المستدرك للحاكم (٣/ ٢٠١، ٢٠٢) هذا حديث صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

الأخلاق الرفيعة، وإن كان في ذلك إجحاف بالمسلمين ومفوت لهم جهد بعض أفراد المجاهدين.

٢ ـ أسيد بن الحضير:

عندما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة قادماً من بدر لقي بالروحاء رؤوس الناس يهنئونه بما فتح الله عليه، فقال أسيد بن الحضير: يا رسول الله الحمد للّه الذي أظفرك وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفي عن بدر، وأنا أظن أنك تلقى عدواً، ولكن ظننت أنها عير ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت» (١).

سابعاً: الحرب الإعلامية في بدر:

قال حسان ـ رضي الله عنه ـ:

فما نخشى بحول الله قوماً ... وإن كثروا وأجمعت الزحوف
إذا ما ألبوا جمعاً علينا ... كفانا حدهم رب رؤوف
سمونا يوم بدر بالعوالي ... سراعاً ما تضعفنا الحتوف(٢)
فلم تُر عصبة في الناس أنكى ... لمن عادوا إذا لقحت كشوف
ولكنا توكلنا وقُلنا ... مآثرنا ومعلقنا السيوف
لقيناهم بها لما سمونا ... ونحن عصبة وهم ألوف(٣)

وقال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ:

لما حامت فوارسكم ببدر ... ولا صبروا به عند اللِّقاء
وردناه بنور الله يجلو ... دجى الظلماء عنا والغطاء
رسول الله يقدمنا بأمر ... من أمر الله أُحكم بالقضاء
فما ظفرت فوارسكم ببدرٍ ... وما رجعوا إليكم بالسواء
فلا تعجل أبا سفيان وارقب ... جياد الخيل تطلع من كداء
بنصر الله روحُ القدس فيها ... وميكالٌ، فيا طيب الملاء(٤) (٥)

كان النبي ﷺ يحث شعراء المسلمين على القيام بواجبهم في الدفاع عن المسلمين، وإخافة الأعداء بشعرهم، فقد كان الشعر يمثل الحملات الإعلامية المؤثرة في دنيا العرب فيرفع أقواماً

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٣٠٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٦). الحتوف: جمع حتف وهو الموت.

(٣) هذا محمول على المبالغة لأن جيش قريش ما كان يزيد على الألف.

(٤) أي ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل عليهما السلام.

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٠).

ويخفض آخرين، ويشعل الحروب ويطفئها [١]. كانت بوادر الحرب الإعلامية قد اندلعت منذ الهجرة، غير أن ظهورها أكثر بدأ مع حركة السرايا قبيل بدر، لكنها انفجرت انفجاراً ضخماً بعد بدر، لأن الجانب الإعلامي للقبائل المجاورة كان هدفاً مهماً من أهداف الفريقين، ويظهر أن القصائد سرعان ما تطير بها الركبان بين يثرب ومكة، فيأتي الرد من الطرف الآخر، فعند النصر تكثر أشعار الفريق المنتصر بينما تكثر المراثي عند الفريق الثاني، وكان الصف الإسلامي يضم شعراء متخصصين أمثال كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وكان أشدهم على الكفار حسان [٢].

المبحث الثامن

أهم الأحداث التي وقعت بين غزوتي بدر وأحد

في أعقاب غزوة بدر أخذت الهيبة العسكرية للمسلمين مداها الكبير في دائرة واسعة في الجزيرة العربية، وأحس ضعفاء المشركين بالخطر، وشعر أقوياؤهم بغلبة الإسلام، وبدأت النفوس تتطلع إلى الإيمان فتوسعت دائرة الدخول في الإسلام، ورأى الكثيرون أن يدخلوا في الإسلام نفاقاً أو خديعة، وبهذا كله أصبحت الدولة الجديدة أمام أوضاع جديدة من المكر والتآلب والتحالفات، ولكن تأييد الله تعالى ثم جهاز أمن الدولة المتيقظ أفشل مخططات أعداء الإسلام [٣].

أولاً: الغزوات التي قادها رسول الله ﷺ بعد بدر وقبل أحد:

١ ـ ماء الكدر في بني سليم:

غزا النبي ﷺ بعد سبع ليال من عودته إلى المدينة من غزة بدر، وبلغ ماء الكدر في ديار بني سليم، الذين قصدهم بغزوته هذه، غير أنه لم يلْق حرباً، فأقام ثلاث ليال على الماء ثم رجع إلى المدينة [٤]، وكان سبب تلك الغزوة تجمع أفراد بني سليم لمقاتلة المسلمين والاعتداء عليهم بعد معركة بدر مباشرة، ولكن رسول الله ﷺ فاجأهم بهجوم سريع غير متوقع، فهرب بنو سليم وتفرقوا على رؤوس الجبال، وبقيت إبلهم مع راع لها يدعى يساراً، فاستاق رسول الله ﷺ الإبل مع راعيها، وعند موضع صرار، على ثلاثة أميال من المدينة، قسم النبي ﷺ الإبل التي كان عددها خمسمائة بعير على أصحابه، فأصاب الواحد منهم بعيرين، ونال النبي ﷺ خُمسها،

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٤/ ١٩٩).

(٢) انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية، (ص ٣٥٤، ٣٥٥).

(٣) انظر: الأساس في السنّة وفقهها السيرة النبوية (١/ ٥١٢).

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٩٦).

وكان يسار من نصيبه، ولكنه أعتقه بعد ذلك [١].

٢ ـ غزوة السويق:

قدم أبو سفيان بمائتي فارس من مكة وسلك طريق النجدية، حتى نزلوا حي بني النضير ليلاً واستقبلهم سلام بن مشكم سيد بني النضير، فأطعمهم وأسقاهم وكشف لهم عن أسراء المسلمين، وتدارس معهم إحدى الطرق لإيقاع الأذى بالمسلمين، ثم قام أبو سفيان بمهاجمة ناحية العُريض ـ واد بالمدينة من طرف حرة واقم ـ فقتل رجلين وأحرق نخلاً وفر عائداً إلى مكة، فتعقبه رسول الله ﷺ في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار، ولكنه لم يتمكن من إدراكهم، لأن أبا سفيان ورجاله قد جدّوا في الهرب، وجعلوا يتخففون من أثقالهم ويلقون السويق [٢] التي كانوا يحملونها لغدائهم، وكان المسلمون يمرون بهذه الجرب فيأخذونها حتى رجعوا بسويق كثيرة، لذا سميت هذه الغزوة بغزوة السويق، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسة أيام دون أن يلقى حرباً [٣].

٣ ـ غزوة ذي أمر:

جاءت الأخبار من قبل رجال الاستخبارات الإسلامية، تفيد بأن رجال قبيلتي ثعلبة ومحارب تجمعوا بذي أمر بقيادة دُعْثُور بن الحارث المحاربي، يريدون حرب رسول الله ﷺ، والإغارة على المدينة فاستعمل النبي ﷺ على المدينة عثمان بن عفان وخرج في أربعمائة وخمسين من المسلمين بين راكبٍ وراجل، فأصابوا رجلاً بذي القصة يقال له جبّار من بني ثعلبة، كان يحمل أخباراً عن قومه أسرّ بها إلى رسول الله ﷺ، وقد دخل في الإسلام، وانضم إلى بلال ليتفقه في الدين [٤]، أما المشركون من بني ثعلبة ومحارب ما لبثوا أن فروا إلى رؤوس الجبال عند سماعهم بمسير المسلمين، وبقي رسول الله ﷺ في نجد مدة تقارب الشهر دون أن يلقى كيداً من أحد وعاد بعدها إلى المدينة [٥]، وفي هذه الغزوة أسلم دعثور بن الحارث الذي كان سيداً مطاعاً بعد أن حدثت له معجزة على يدي رسول الله ﷺ. فقد أصاب المسلمون في هذه الغزوة مطر كثير، فابتلت ثياب رسول الله ﷺ فنزل تحت شجرة ونشر ثيابه لتجف، واستطاع دعثور أن ينفرد برسول الله بسيفه، فقال: يا محمد من يمنعك مني اليوم؟ قال: الله. ودفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟» قال: لا أحد وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً.

---

(١) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، (ص ٢٧٧).

(٢) السويق: هو أن تحمّص الحنطة والشعير ثم يطحن باللبن والعسل والسمن.

(٣) انظر: السيرة لابن هشام (٣/ ٥١)، التاريخ السياسي والعسكري، (ص ٢٧٨، ٢٧٩).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣)، التاريخ السياسي والعسكري، (ص ٢٧٩).

(٥) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، (ص ٢٧٩).

فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه فلما رجع إلى أصحابه فقالوا: ويلك، مالك؟ فقال: نظرت إلى رجل طويل فدفع صدري فوقعت لظهري، فعرفت أنه ملك وشهدت أن محمداً رسول الله والله لا أكثر عليه جمعاً، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام [١]، ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

٤ ـ غزوة بحران [٢]:

كانت هذه الغزوة في شهر جمادي الأولى من السنة الثالثة للهجرة، وقد خرج النبي ﷺ في ثلاثمائة من المسلمين حتى بلغ بحران بين مكة والمدينة، يريد قتال بني سليم فوجدهم قد تفرقوا، فانصرف عنهم، وعاد إلى المدينة بعد أن أمضى خارجها عشر ليال [٣]. ونلحظ في هذه الغزوات قدرة القيادة الإسلامية على رصد تحركات العدو، ومعرفة قوته، وخططه، ومدده لكي تحطم هذه التجمعات المناوئة للدولة الإسلامية الفتية قبل أن يستفحل أمر هذه القبائل، وتصبح خطراً على المدينة.

وهذه الغزوات في هذه الصحراء المترامية الأطراف كانت دورات تدريبية تربوية للصحابة الكرام، وسعدت سرايا الصحابة بقيادة النبي ﷺ لها، فقد كانت تلك الدورات العملية التدريبية القتالية مستمرة، وتمتد من خمسة أيام إلى شهر، تتم فيها الحياة الجماعية، ويتربى جنود الإسلام على السمع والطاعة، والتدريب المتقن، ويكتسبون خبرات جديدة تساعدهم على تحطيم الباطل وتقوية الحق.

لقد كان المنهاج النبوي الكريم يهتم بتربية الصحابة في ميادين النزال، ولا يغفل عن المسجد ودوره في صقل النفوس، وتنوير العقول، وتهذيب الأخلاق، من خلال وجود المربي العظيم ﷺ الذي أصبحت تعاليمه تشع في أوساط المجتمع من خلال القدوة، والعبادة الخاشعة لله ﷻ، فالمنهاج النبوي الكريم جمع بين الدورات المسجدية التربوية، والدورات العسكرية التربوية المكثفة، لكي يقوى المجتمع الجديد، وترص صفوفه، ويكسب الخبرات لكي تقوم بنشر الإسلام في الآفاق [٤].

٥ ـ سرية زيد بن حارثة إلى القُرَدة:

أصبح مشركو مكة بعد هزيمتهم في بدر، يبحثون عن طريق أخرى لتجارتهم للشام، فأشار

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣).

(٢) بحران: كتبها بعضهم بفتح الباء (بَحْران) وبعضهم بضمها.

(٣) انظر: المجتمع المدني للعمري، (ص ٦١)، التاريخ السياسي والعسكري، (ص ٢٨٠).

(٤) انظر: التربية القيادية (٣/ ١١٨، ١١٩).

بعضهم إلى طريق نجد العراق، وقد سلكوها بالفعل، وخرج منهم تجار، فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، ومعهم فضة وبضائع كثيرة، بما قيمته مائة ألف درهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ بواسطة أحد أفراد جهاز الأمن الإسلامي يدعى سليط بن النعمان ـ رضي الله عنه ـ [(١)]، فبعث زيد بن حارثة في مائة راكب لاعتراض القافلة، فلقيها زيد عند ماء يقال له القُردة، وهو ماء من مياه نجد، ففرّ رجالها مذعورين، وأصاب المسلمون العير وما عليها، وأسروا دليلها فُرات بن حيّان الذي أسلم بين يد النبي ﷺ، وعادوا إلى المدينة، فخمسها رسول الله ﷺ ووزع الباقي بين أفراد السرية [(٢)].

ثانياً: غزوة بني قينقاع:

ذكر الزهري أنها وقعت في السنة الثانية للهجرة، وذكر الواقدي وابن سعد أنها وقعت يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية [(٣)]، واتفق معظم من كتب في مغازي رسول الله ﷺ وسيرته على أنها وقعت بعد معركة بدر، إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة التي أبرمها الرسول ﷺ معهم، ولم يوفوا بالتزاماتهم التي حددتها، ووقفوا من الرسول ﷺ والمسلمين مواقف عدائية، فأظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون في بدر، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين [(٤)]، وقد جمعهم النبي ﷺ في سوقهم بالمدينة ونصحهم، ودعاهم إلى الإسلام، وحذّرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشاً في بدر [(٥)]، غير أنهم واجهوا النبي ﷺ بالتحدي والتهديد رغم ما يفترض أن يلتزموا به من الطاعة والمتابعة لبنود المعاهدة التي جعلتهم تحت رئاسته، فقد جابهوه بقولهم: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وإنك لم تلق مثلنا [(٦)]، وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام والاحترام، بل على العكس فإنهم قد أظهروا روحاً عدائية، وتحدياً واستعلاءً واستعداداً للقتال، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عِمرَان: ١ ـ ١٣].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ١٣٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٦).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٩٩).

(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٦٩).

(٥) انظر: اليهود في السنّة المطهرة (١/ ٢٧٦).

(٦) المصدر نفسه، (١/ ٢٧٦).

١ ـ الأسباب المباشرة للغزو:

لما انتصر المسلمون في بدر وقال رسول الله ﷺ لليهود ما قال، أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحينون الفرصة السانحة لمناوشة المسلمين، حتى جاءتهم فرصتهم الحقيرة الدنيئة عندما جاءت امرأة من العرب قدمت بجَلَب [١] لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع [٢].

فحين علم رسول الله ﷺ بذلك سار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار، وذلك يوم السبت للنصف من شوال من السنة الثانية للهجرة [٣]، وكان الذي حمل لواء المسلمين يومئذٍ حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ واستخلف ﷺ على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر العمري [٤]، واسمه بشير، وحين سار إليهم رسول الله ﷺ نبذ إليهم العهد كما أمره تعالى في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [٥] [الأنفال: ٥٨].

٢ ـ ضرب الحصار عليهم:

وحين علم اليهود بمقدمه ﷺ، تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ خمس عشرة ليلة ـ كما ذكر ابن هشام ـ [٦] واستمر الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب واضطروا للنزول على حكمه ﷺ، فقد فاجأهم ﷺ بأسلوب الحصار، فأربكهم وأوقعهم في حيرة من أمرهم بعد أن قطع عنهم كل مدد وجمد حركتهم، فعاشوا في سجن مما جعلهم في النهاية ييأسون من المقاومة والصبر، فبعد أن كانوا يهددون رسول الله ﷺ وبأنهم قوم يختلفون بأساً وشدة عن مشركي قريش، إذا بهم يضطرون للنزول على حكم رسول الله ﷺ [٧]، فأمر بهم فربطوا، فكانوا يكتفون أكتافاً، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي

---

(١) الجَلَب: (بتحريك اللام): كل ما يجلب للأسواق ليباع فيها.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٤).

(٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١٧٦)، الطبقات لابن سعد (٢/ ٢٨، ٢٩).

(٤) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٤٨١).

(٥) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٧٩).

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٥).

(٧) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٤).

الأوسي [١].

٣ ـ مصير يهود بني قينقاع:

حاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحل حلفاءه من وثاقهم، فعندما مرّ عليهم قال: حلّوهم. فقال المنذر: أتحلون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ؟ والله لا يحلهم رجل إلا ضربت عنقه [٢]، فاضطر عبد الله بن أبي ابن سلول أن يتراجع عن أمره ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي ﷺ بفك أسرهم [٣]، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أحسن في موالي ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل ابن أبي يده في جيب ودرع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني» وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً [٤]، ثم قال: ويحك أرسلني، قال: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر: فقال رسول الله ﷺ: «هم لك» [٥].

فخلى رسول الله سبيلهم ثم أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ما كان لديهم من مال، وقد تولى جمع أموالهم وإحصاءها محمد بن مسلمة ﷺ [٥]، وحاول ابن أبي سلول أن يحدث رسول الله ﷺ في يهود بني قينقاع لكي يُقرهم في ديارهم، فوجد على باب رسول الله ﷺ عُويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، فردّه عويم وقال: لا تدخل حتى يأذن رسول الله ﷺ لك، فدفعه ابن أبي، فغلّظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن أبي الجدار فسال الدم [٦].

ويظهر في هذا الخبر فقه النبي ﷺ السياسي في تعامله مع ابن سلول حيث لبى طلبه، فلعل هذا الموقف يغسل قلبه، ويزيد الغشاوة عنه فتتم هدايته، فقال له: هم لك، ولعل الذين يسيرون وراء زعامة ابن أبي يصلحون بصلاحه فيتماسك الصف، ويلتحم فلا يتأثر من كيد أعداء الإسلام [٧].

وهناك بُعْدٌ آخر حيث حرص ﷺ أن يتفادى حدوث فتنة في مجتمع المؤمنين، حيث أن

---

(١) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨٠).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٢).
(٣) المصدر نفسه، (٥/ ٣٣).
(٤) ظللاً: جمع ظلة وهي السحابة، استعارة لتغيير الوجه عند الغضب.
(٥) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨١).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٠).
(٧) انظر: المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان (٢٤٧).

بعض الأنصار حديث عهد بالإسلام، ويُخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي لسمعته الكبيرة فيهم [١]، ولذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة والصبر عليه وعلى إساءاته تجنباً للفتنة، وإظهاراً لحقيقة الرجل من خلال تصرفاته ومواقفه عند من يجهلها، ومن ثم يفر الناس من حوله ولا يتعاطفون معه، وقد حقق هذا الأسلوب نجاحاً باهراً، فقد ظهرت حقيقة ابن سلول لجميع الناس حتى أقرب الناس إليه، ومنهم ولده عبد الله، فكانوا بعدها إذا تكلم أسكتوه، وتضايقوا من كلامه [٢]، بل أرادوا قتله كما سيأتي بإذن الله تعالى.

٤ ـ تبرؤ عبادة بن الصامت منهم:

لما نقضت العهد بنو قينقاع وكان عبادة بن الصامت أحد بني عوف ـ لهم من حلف بني قينقاع مثل الذي لهم من عبد الله بن أُبي ـ مشى لرسول الله ﷺ وخلعهم إليه، وتبرأ إلى الله ﷻ وإلى رسوله ﷺ من حلفهم وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم [٣]. ولما تقرر جلاء بني قينقاع أمر رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت أن يجليهم، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج ـ ونحن مواليك ـ فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لما حاربتم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني أبرأ إليك منهم ومن حلفهم، وكان ابن أبي وعبادة بن الصامت منهم بمنزلة واحدة في الحلف، فقال عبد الله بن أُبي: إني تبرأت من حلف مواليك؟ ما هذا بيدهم عندك، فذكره مواطن قد أبلوا فيها، فقال عبادة: يا أبا الحباب، تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود، أما والله إنك لمُعْصمٌ بأمر سنرى غيَّه غداً، فقالت قينقاع: يا محمد، إن لنا دِيْناً في الناس، قال النبي ﷺ: «تعجَّلوا وضعوا»، وأخذهم عبادة بالرحيل والإجلاء، وطلبوا التنفس، فقال لهم: ولا ساعة من نهار، لكم ثلاث لا أزيد عليها، هذا أمر رسول الله ﷺ، ولو كنت أنا ما نفستكم، فلما مضت ثلاث، خرج في آثارهم حتى سلكوا إلى الشام وهو يقول: الشرف الأبعد الأقصى فالأقصى، وبلغ خلف الذباب ثم رجع، ولحقوا بأذرعات [٤].

وهكذا خرج بنو قينقاع من المدينة صاغرين، قد ألقوا سلاحهم وتركوا أموالهم غنيمة للمسلمين، وهم كانوا من أشجع يهود المدينة وأشدهم بأساً، وأكثرهم عدداً وعدة، ولذلك لاذت القبائل اليهودية بالصمت والهدوء فترة من الزمن بعد هذا العقاب الرادع، وسيطر الرعب على قلوبها وخضدت شوكتها [٥].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٣٢).
(٢) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٨).
(٣) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨٢، ٢٨٣).
(٤) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).
(٥) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١٤٩).

٥ ـ الآيات التي نزلت في موالاة ابن سلول لليهود، وبراءة عبادة بن الصامت منهم:

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٦].

قال ابن عطية في هذه الآيات: لما انقضت بدر وشجر أمر بني قينقاع، أراد رسول الله ﷺ قتلهم، فقام دونهم عبد الله بن أُبي ابن سلول وكان حليفاً لهم، وكان عبادة بن الصامت من حلفهم مثل ما لعبد الله، فلما رأى عبادة منزع رسول الله ﷺ وما سلكته اليهود من المشاقة للّه ولرسوله، جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أبرأُ إلى الله من حلف يهود وولائهم، ولا أوالي إلا الله ورسوله، وقال عبد الله بن أُبي: أما أنا فلا أبرأ من ولاء يهود، فإني لا بدّ لي منهم، إني رجل أخاف الدوائر [(١)].

إن الفرق واضح بين ابن سلول الذي انغمس في النفاق، ومرد عليه، وبين عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ الذي تربى على المنهاج النبوي، فصفت نفسه وتطهر قلبه، وقوي إيمانه، وتنوّر عقله، فتخلص من آثار العصبية الجاهلية، والأهواء، والمصالح الذاتية، وقدم مصلحة الإسلام على كل مصلحة، فكان مثلاً حياً للمسلم الصادق، المخلص لعقيدته [(٢)].

ثالثاً: تصفية المحرضين على الدولة الإسلامية، مقتل كعب بن الأشرف:

إن خطر المحرضين على الفتنة لا يقل عن خطر الذين يشهرون السيوف لقتال المسلمين، إذ لولا هؤلاء المحرضون لما قامت الفتنة، لذلك أخذ رسول الله ﷺ يتتبع هؤلاء المحرضين ويقتلهم إطفاءً لنار الفتنة، وتمكيناً للحق، وقد قتل منهم خلقاً بعد موقعة بدر [(٣)]. منهم:

أ ـ عصماء بنت مروان: التي كانت تحرض على النبي وتعيب الإسلام، فقد أقدم عمير بن عدي الخطمي رضي الله عنه على قتلها، وحين سأل النبي ﷺ بعد ذلك عما إذا كان عليه شيء؟ قال له

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٤٧٧، ٤٧٨).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٠٢).

(٣) انظر: قراءة سياسة للسيرة النبوية، محمد قلعجي (ص ١٣٨).

النبي ﷺ: «نصرت الله ورسوله يا عمير» [١]، ثم قال: «لا ينتطح فيها عنزان» [١]، وقد أسلم نتيجة ذلك عدد من بني خطمة وجهر بالإسلام منهم من كان يستخفي [٢].

ب ـ **مقتل أبي عفك اليهودي**: كان أبو عفك شيخاً كبيراً من بني عمرو بن عوف، وكان يهودياً يحرض على رسول الله ﷺ ويقول الشعر، فقال رسول الله ﷺ: «من لي بهذا الخبيث؟» فخرج له الصحابي سالم بن عمير فقتله [٣].

وأهم حدث في تصفية المحرضين على الدولة ما بين بدر وأُحد هو مقتل كعب بن الأشرف.

جـ ـ **مقتل كعب بن الأشرف**: ينتسب كعب بن الأشرف إلى بني نبهان من قبيلة طيء، كان أبوه قد أصاب دماً في الجاهلية، فقدم المدينة وحالف يهود بني النضير وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعب [٤]، وكان شاعراً ناصب الإسلام، وقد غاظه انتصار المسلمين على قريش في معركة بدر، فسافر إلى مكة يهجو النبي ﷺ ويحرض قريش على الثأر لقتلاهم الذين كان ينوح عليهم ويبكيهم في شعره، ويدعو إلى القضاء على الرسول والمسلمين [٥]، ومما قاله من الشعر في قتلى بدر من المشركين:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قُتلت سُراةُ الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب بها من أبيض ماجدٍ ... ذي بهجة تأوي إليه الضيّعُ
ويقول أقوم أقوام أذّل [٦] بسخطهم ... إن ابن الأشرف ظل كعباً يجزعه
صدقوا، فليت الأرض ساعة قُتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدّع
نبئت أن بني كنانة كلهم ... خشعوا لقول أبي الوليد وجدّعوا [٧]

واستمر كعب بن الأشرف في أذية رسول الله ﷺ بالهجاء وتشجيع قريش لمحاربة المسلمين، واستغواهم على رسول الله ﷺ، فقال له أبو سفيان: أناشدك الله، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ قال: أنتم أهدى منهم سبيلاً [٨]، ثم خرج مقبلاً قد أجمع رأي

(١) مجمع الزوائد، كتاب المناقب، رقم (١٤٥٥٧).
(٢) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٩٥).
(٣) انظر: نضرة النعيم (١/ ٢٩٦).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٥٨).
(٥) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/ ٢٩٨).
(٦) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، (ص ١٥٨).
(٧) المصدر نفسه، (ص ١٥٨).
(٨) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، (ص ١٥٨).

المشركين على قتال رسول الله ﷺ معلناً بعداوته وهجائه [١].

ولما قدم المدينة أعلن معاداة النبي ﷺ وشرع في هجائه، وبلغت به الوقاحة والصلف أن يمتد لسانه إلى نساء المسلمين وشبب بأم الفضل بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ زوجة العباس عم النبي ﷺ فقال فيها:

أذاهب أنت لم تخْذُل بمنقبة ... وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انعصرت ... من ذي القوارير والحنَّاء والكتم [٢]
إحدى بني عامر هام الفؤاد بها ... ولو تشاء شفتْ كعباً من السقم
لم أر شمساً بليل قبلها طلعت ... حتى تبدت لنا في ليلة الظُّلم [٣]

١ ـ حسان بن ثابت لابن الأشرف بالمرصاد:

كان رسول الله ﷺ يحث حساناً للتصدي لكعب بن الأشرف، فكان ﷺ يعلم حساناً أين نزل ابن الأشرف في مكة، فعندما نزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضميرة السهمي وزوجته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص، فأبلغ ﷺ حسان بن ثابت بذلك فهجاهم لإيوائهم ابن الأشرف، فلما بلغ عاتكة بنت أسيد هجاء حسان نبذت رحل اليهودي كعب بن الأشرف وقالت لزوجها: ما لنا ولهذا اليهودي؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسان؟ [٤].

وتحول كعب إلى أناس آخرين، وكان كلما تحول إلى قوم آخرين دعا رسول الله ﷺ حساناً وأخبره أين نزل ابن الأشرف فيهجو من نزل عندهم فيطردونه، وظل يلاحقه حتى لفظه كل بيت هناك، فعاد إلى المدينة راغماً بعد أن ضاقت في وجهه السبل ينتظر مصيره المحتوم وجزاءه الذي يستحقه [٥].

كانت الحرب الإعلامية التي شنها حسان ضد كعب بن الأشرف قد حققت أهدافها، وهذه بعض الأبيات التي قالها حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ في الرد على كعب بن الأشرف:

أبَكَى لكعْب ثم عُلَّ [٦] بعبرة ... منه وعاش مجدعاً لا يسمع؟
ولقد رأيت ببطن بدر منهم ... قتلى تسح لها العيون وتدمع
فابك فقد أبكيت عبداً راضعاً ... شبه الكُليب إلى الكُليْبة يتْبع

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، (ص ١٥٨).
(٢) رادعة: أي يفوح منها أثر الطيب والزعفران، والكتم نبت يخلط بالحناء فيخضب به الشعر فيبقى لونه.
(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، (ص ١٦٠).
(٤) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١١١).
(٥) المصدر نفسه، (١/ ١١١).
(٦) عل: من العلل، وهو الشرب بعد الشرب، يريد البكاء بعد البكاء.

ولقد شفى الرحمان منا سيداً وأهان قوماً قاتلوه وصُرِّعوا
ونجا وأفلت منهم من قَلْبُه شَغَفٌ يظل لخوفه يتصدع [١]

٢ ـ جزاء ابن الأشرف:

لقد قام اليهودي ابن الأشرف بجرائم كثيرة، وخيانات عديدة، وإساءات متعددة لرسول الله ﷺ وللمسلمين والمسلمات القانتات العابدات، وكل جريمة من هذه الجرائم تعد نقضاً للعهد تستوجب عقوبة القتل، فكيف إذا اجتمعت هذه الجرائم كلها في هذا اليهودي الشرير؟ [٢].

إن ابن الأشرف بهجائه للنبي وإظهاره التعاطف مع أعداء المسلمين، ورثاء قتلاهم وتحريضهم على المسلمين، يكون قد نقض العهد وصار محارباً مهدور الدم، ولذلك [٣] أمر النبي ﷺ بقتله. وقد فصل البخاري خبر مقتله، فقد روى في صحيحه بإسناده إلى جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله» فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم». قال: فأذن لي أن أقول شيئاً. قال: «قل».

فأتاه محمد بن مسلمة [٤] فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنَّانا، وإني قد أتيتك استسلفك، قال: «وأيضاً والله لتملُّنه» قال: إنا قد اتبعناه فلا تحب أن ندعه، حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وَسْقاً أو وَسْقين.

فقال: نعم، ارهنوني.

قالوا: أي شيء تريد؟

قال: ارهنوني نساءكم.

قالوا: كف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: فأرهنوني أبناءكم.

قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فيُسَب أحدهم فيقال: رهن بِوَسْقٍ أو وَسْقَين، هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللامَةَ. قال سفيان: يعني السلاح.

فواعده أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة، وهو أخو كعبٍ من الرضاعة، فدعاهم إلى

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٥٩).
(٢) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١١١).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٠٤).
(٤) الذي كتب في السيرة النبوية لابن هشام أن الذي جاء كعب بن الأشرف أبو نائلة واسمه سلكان بن سلامة.

الحصن فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟

فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة.

قالت: أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم.

قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعي إلى طعنةٍ بليلٍ لأجاب. قال: ويُدخِل محمد بن مسلمة معه رجلين [١]، وقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فنزل إليهم متوشحاً وهو يَنْفَحُ منه ريح الطيب. فقال: ما رأيت كاليوم ريحاً ـ أي أطيب.

فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟

قال: نعم فشمّه، ثم أشمَّ أصحابه.

ثم قال: أتأذن لي؟

قال: نعم، فلما استمكن منه قال: دونكم، فقتلوه ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه [٢].

وجاء في السيرة النبوية لابن هشام أن محمد بن مسلمة مكث ثلاثة أيام بعد أن استعد لقتل كعب بن الأشرف لا يأكل ولا يشرب إلا ما يُعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه، فقال له: «لم تركت الطعام والشراب؟»

فقال: يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدري هل أفينَّ لك به أم لا؟

فقال رسول الله ﷺ: «إنما عليك الجهد».

فقال: لا بدّ لنا من أن نقول. قال: «قولوا ما بدا لكم» [٣].

وجاء في السيرة النبوية عن ابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ مشى معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم فقال: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم» [٤].

دروس وعبر:

● إن في مقتل كعب بن الأشرف دروساً وعبراً وفوائد في فقه النبي ﷺ في تعامله مع خصوم الإسلام والدولة الإسلامية، فقد اتضح أن عقوبة الناقض للعهد القتل، وهذا ما حكم به النبي ﷺ، وعقوبة المعاهد الذي يشتم الرسول ﷺ ويؤذيه بهجاء أو غيره هي القتل، وهذا ما

---

(١) وفي كتب السيرة أن الذين قاموا بقتله خمسة نفر هم: محمد بن مسلمة، وسلكان بن سلامة بن وقش وهو أبو نائلة، أحد بني عبد الأشهل، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وقش، أحد بني عبد الأشهبل، وأبو عَبْس بن جبر أحد بني حارثة، هؤلاء قدموا أبا نائلة ليحدث كعب بن الأشرف.

(٢) البخاري في المغازي: باب «قتل كعب بن الأشرف» رقم (٤٠٣٧).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).

(٤) المصدر نفسه، (٣/ ٦٢).

كان لابن الأشرف، ويؤخذ من هذا أن شاتم الرسول ﷺ سواء كان معاهداً أو غيره تضرب عنقه عقوبة له، وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيمية في تفصيل هذه الأحكام في كتابه القيّم: الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ.

● يؤخذ من طريقة تنفيذ حكم الرسول ﷺ باليهودي ابن الأشرف، أن الحكم قد تقتضي المصلحة العامة للمسلمين أن ينفذ سراً، ويتأكد هذا إن كان يترتب على تنفيذه بغير هذه الصورة السرية فتنة أو خطر قد يكلف المسلمين ثمناً باهظاً [١]، وقد بيّنت هذه الصورة على أن مواجهة الكفار أعداء الإسلام ومحاربي الدولة الإسلامية لا يقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك، وإنما يتعدى ذلك إلى كل عمل تحصل به النكاية بالأعداء ما لم يكن إثماً، وقد يوفر القضاء على رجل له دوره البارز في حرب المسلمين جهوداً كبيرة وخسائر فادحة يتكبدها المسلمون.

وهذا مشروط بالأمن من الفتنة، وذلك بأن يكون للمسلمين شوكة، وقوة ودولة، بحيث لا يترتب على نوعية هذا العمل فتك بالمسلمين، واجتثاث الدعاة من بلدانهم، وإفساد في مجتمعاتهم [٢]، وقد أخطأ بعض المسلمين في العالم الإسلامي، وتعجلوا الصدام المسلح، واستدلوا على ما ذهبوا إليه بمثل هذه الحادثة، ولا حجة لهم فيها، لأن ذلك كان بالمدينة، وللمسلمين شوكة ودولة، أما هم فليس لهم دولة ولا شوكة، ثم كان ذلك إعزازاً للدين وإرهاباً للكافرين وكانت كلها مصالح لا مفسدة معها، أما ما يحدث في فترات الاستضعاف من هذه الحوادث فإنها يعقبها من الشر والفساد واستباحة دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ما لا يخفى على بصير [٣].

إن النبي ﷺ لم يقم بمحاولة تصفية لأي أحد من المشركين في مكة، مع القدرة على قتل زعماء الشرك كأبي جهل، وأمية بن خلف، وعتبة، ولو أشار إلى حمزة أو عمر بذلك أو غيرهم من الصحابة، لقاموا بتنفيذ ذلك، ولكن الهدي النبوي الكريم يعلمنا أن فقه قتل زعماء الكفر يحتاج إلى شوكة وقوة، كما أن هذا الفقه يحتاج إلى فتوى صحيحة من أهلها، واستيعاب فقه المصالح والمفاسد، وهذا يحتاج إلى علماء راسخين حيث تتشابك المصالح في عصرنا، وحيث للرأي العام دوره الكبير في قرارات الدول، وحيث احتمالات توسع الأضرار [٤].

● ونلحظ قيمة الكلمة عند الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في موقف محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ بعد

(١) انظر: الصراع مع اليهود لأبي فارس (١/ ١١٥).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٥٤).
(٣) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية، (ص ٢٠٥).
(٤) انظر: الأساس في السنة وفقهها، السيرة النبوية (٥٣٧).

أن أعطى كلمة لرسول الله ﷺ يتعهد فيها بقتل اليهودي ابن الأشرف ثم إبطاؤه في ذلك أعيته الحيلة بقيام صعوبات في سبيل تحقيق ما وعد، حيث امتنع عن الطعام والشراب وأصابه الغم والحزن لأنه قال قولاً يخشى أن لا يستطيع الوفاء به، ونلاحظ في مجتمعاتنا المعاصرة أن كثيراً من الناس يعطون عهوداً ومواثيق ولا يقدرون قيمتها ويخفرون ذمتهم، ويتراجعون عن عهودهم ومواثيقهم، وتبقى حبراً على ورق، فهؤلاء ليسوا أصحاب مبادىء ومواقف يبتغى بها وجه الله، بل هم أصحاب مصالح ومنافع يُخشى عليهم أن يعبدوها من دون الله.

إن أصحاب الدعوات يؤثرون أن تندق أعناقهم، وأن تضوى أجسامهم، وتزهق أرواحهم، على أن يتراجعوا عن كلماتهم وعهودهم ومواثيقهم، يستعذبون الموت والعذاب في سبيل عقائدهم وإسلامهم [١].

● في قول رسول الله ﷺ: «إنما عليك الجهد» [٢] فيه توجيه نبوي كريم أن النصر لا يأتي إلا بعد بذل الجهد والصبر عند الابتلاء قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هُود: ٤٩] . وعلى المسلم أن يفرغ كل ما في وسعه من جهد فكري وطاقة جسمية في سبيل تحقيق ما وعد، ثم يتوكل على الله بعد ذلك في النتائج [٣].

● وفي قوله ﷺ: «قولوا ما بدا لكم» [٤]، فقه نبوي كريم فقد قالوا كلاماً هو في الأحوال العادية كفر، ومن هنا تعرف أنه من أجل تحقيق المهام العسكرية فلا حدود للكلام الذي يقال، ولكن تأتي هنا مسألة أخرى وهي ما إذا كان النجاح في المهام العسكرية يقتضي أفعالاً لا تجوز أو يقتضي ترك فرائض، فما العمل؟ المعروف أنه ليس هناك من الذنوب أعظم من الكفر والشرك، فإذا جاز التظاهر بالكفر لذلك فمن باب أولى جواز غيره، على أن يتأكد طريقاً للوصول إلى الهدف أو يغلب الظن على ذلك، وعلى أن يقتصر فيه على الحد الذي لا بدّ منه، سواء كانت الوسيلة تأخير فريضة أو ارتكاب محظور، على أن هذا وهذا مقيدان بالفتوى، فهناك محظورات لا يصح فعلها بحال كالزنا واللواط [٥].

هناك بعض القضايا تحتاج لأهل الفتوى المؤهلين لأن يفتوا فيها، خصوصاً في الظروف الاستثنائية والحالات الاضطرارية وفي المحاكمات السياسية والعسكرية، لأنها تحتاج إلى الموازنات والفتاوى الاستثنائية التي لا يستطيعها كل إنسان، فالأحكام الأصلية ليست مجهولة،

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١١٩).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).

(٣) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٢٠).

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).

(٥) انظر: الأساس في السنة وفقهها، السيرة النبوية (٢/ ٥٣٧، ٥٣٨).

وإنما الأحكام الاستثنائية التي تقتضيها الظروف الاستثنائية تحتاج إلى علماء ربانيين، وفقهاء راسخين لهم القدرة على فهم مقاصد الشريعة، وواقعهم الذي يعيشون فيه [١].

● وفي قوله ﷺ: «قولوا ما بدا لكم» فقه عظيم يوضحه قوله ﷺ: «الحرب خدعة» [٢].

● قوله ﷺ: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم» [٣] كان لهذا التذكير بالإخلاص في الجهاد، «انطلقوا على اسم الله» والدعاء لهم بالتوفيق والعون، كل ذلك كان حافزاً على الثبات ورافعاً للمعنويات، فلم يعبأوا بقوة ابن الأشرف ومن حوله من الناس،، لأنهم استشعروا معية الله لهم ودعاء الرسول ﷺ ربه بإعانتهم وتحقيق مسعاهم، ونلحظ في الهدى النبوي الأخذ بجميع الأسباب المادية، والتخطيط السديد، ولا يُنسى جانب الدعاء النبوي الكريم، فإنهم لم يغفلوا الأسباب الموصولة بهم إلى نجاح مقصودهم لأن المسلم مأمور بالجمع بين التوكل على الله تعالى والأخذ بالأسباب التي شرّعها الله سبحانه [٤]، ولذلك كانت خطة محمد بن مسلمة مع إخوانه محكمة وأتقنوا فقه سنّة الأخذ بالأسباب، فقد كانت الأسباب التي ساعدت على نجاح الخطة كالتالي:

* إن أبا نائلة كان أخاه من الرضاعة وهو يطمئن إليه ولا يتوجّس منه خيفة.

* وفي بعض الروايات، طمأن أبو نائلة كعب بن الأشرف وأدخل الأنس إلى قلبه بمناشدته في الشعر قبل أن يحدّثه عن حاجته.

* ولم يحدث عن حاجته إلى كعب حتى أخرج معب الذي عنده كان من سبل التوفيق، ولو بقي أولئك النفر لربما قد كشفوا حقيقة الأمر وحذروا كعباً من عاقبته، فحديثهم معه على انفراد كان في غاية التوفيق.

* تظاهرهم بالنيل والتبرم والتظلم من الرسول ﷺ طمأن كعب بن الأشرف.

* فكرة رهن السلاح كانت في غاية التوفيق حتى يكون اصطحابهم للسلاح غير مريب ولا يبعث على الريبة، ذلك لأنهم أحضروا ما سيرهنونه إلى كعب، وفي الوقت نفسه يستطيعون أن يستخدموا هذا السلاح في أي وقت التقوا به.

* أخذ الموعد من كعب بن الأشرف كان إحكاماً في الخطة بحيث يتسنى لهم في أي وقت من الليل أن يأتوه ويطرقوا عليه الباب دون أن يشك فيهم وفي نيّتهم.

---

(١) انظر: الأساس في السنة وفقهها، السيرة النبوية (٢/ ٥٣٧، ٥٣٨).

(٢) صحيح مسلم رقم (١٧٤٠).

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦١).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٦٥).

* اطمئنان ابن الأشرف إلى أبي نائلة ومحمد بن مسلمة جعله يخرج في وقت لا يخرج فيه الإنسان من بيته عادةً تحسباً لقتال عدو على حين غرة وغفلة [١].

* إن خطة إبعاد ابن الأشرف عن بيته إلى مكان يخلو به دون رقيب أو نصير كانت موفّقة.

* استدراج أبي نائلة لابن الأشرف وشمّه طيب رأسه وإمساكه بشعره ليشمّه كان موفّقاً وتقدمة ليمسك بهذا الرأس الخبيث، ويتمكن منه لتكون الفرصة سانحة لتنفيذ حكم الله في هذا اليهودي اللعين [٢].

* وتظهر قدرة الصحابة الفائقة في الحفاظ على السرية، وذلك من كتمان هذه الخطة مع كثرة من في المدينة والمنافقين، ومع تأخر تنفيذها، وكون النبي ﷺ عرض هذا الأمر في مشهد من الصحابة، وجرت فيه مشورة، وهذا دليل على قوة إيمان هؤلاء الصحابة وإخلاصهم لدينهم [٣].

وقام هؤلاء المغاوير بتنفيذ أدوار الخطة المحكمة التي اتفقوا عليها وأدركوا مقصودهم الأسمى، ورسول الله ﷺ معهم بإحساسه الكبير ومشاعره الفيّاضة، فقد كانوا يقومون بتنفيذ العملية بعقولهم وأجسامهم، ورسول الله ﷺ يتولى قيادتها العليا بالاتصال بالله تعالى ودعائه بالنصر والإعانة [٤].

٣ ـ أثر مقتل اليهودي ابن الأشرف على اليهود:

انتشر خبر مقتل ابن الأشرف في المدينة، فأسرع أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ، يشتكون ويحتجون على ما فعله أصحابه، فلم يحفل النبي ﷺ بهم، بل أكّد مقتله الذي كان نتيجة حتمية لموقفه المعادي، وقد أوقعت هذه الحادثة الرعب في نفوس اليهود جميعهم، فلم يعد أحد من عظمائهم يجرؤ على الخروج من حصنه، كما لم يعد أحد من يهود المدينة إلا ويخاف على نفسه من المسلمين [٥]، واضطر اليهود لتجديد المعاهدة، وكان لمقتل كعب بن الأشرف أثر عميق في نفوسهم، فمضوا يكيدون للإسلام كما سيتبين من الأحداث، ومن الجدير بالذكر أن الرسول ﷺ لم يؤاخذ بني النضير بجريرة كعب بن الأشرف واكتفى بقتله جزاء غدره وجدد المعاهدة معهم [٦]، ومن الفقه النبوي في معاملة اليهود نستفيد أن العلاج الأمثل لليهود هو

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٢٢).
(٢) المصدر نفسه، (١/ ١٢٢).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ٥٦).
(٤) المصدر نفسه، (٥/ ٥٧).
(٥) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، (ص ١٨٨).
(٦) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٣٠٤).

زجرهم وإرهابهم وقتل أهل الفتن فيهم ومطاردتهم، لأنهم أهل شرور لا يتخلصون منها ولا يتوقفون عنها [١].

رابعاً: بعض المناسبات الاجتماعية:

١ ـ زواج النبي ﷺ بحفصة بنت عمر:

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: (حين تأيمت [٢] حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفى بالمدينة، فقال عمر: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق، فقلت: إن شئت زوّجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فلم يرجع إليَّ شيئاً، وكنت عليه أوجد مني على عثمان.

فلبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلّك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئاً؟

قال عمر: قلت نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها) [٣].

٢ ـ زواج علي ـ رضي الله عنه ـ بفاطمة ـ رضي الله عنها ـ:

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: خطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ فقالت مولاة لي: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا. قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوّجك. فقلت: وعندي شيء أتزوّج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوّجك.

قال: فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ، فلما أن قعدت بين يديه أفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة.

فقال رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟» فسكت فقال: «لعلّك جئت تخطب فاطمة؟» فقلت: نعم، فقال: «وهل عندك من شيء ستحلها به؟» فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: «ما فعلت درع سلحتكها؟ فوالذي نفس علي بيده إنها لحطيمة ما قيمتها أربعة دراهم»

---

(١) انظر: الصراع مع اليهود (١/١٢٦).

(٢) تأيمت: مات عنها زوجها.

(٣) البخاري: كتاب النكاح، رقم (٥١٢٢).

فقلت: عندي، فقال: «قد زوّجتكها» فابعث إليها بها فاستحلها بها» فإنها كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ [١]، وقد جهّز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل [٢] وقربة ووسادة أدم [٣]، حشوها إذخر [٤] [٥].

وهكذا كانت حياتهم في غاية البساطة بعيدة عن التعقيد، وهي إلى شظف العيش أقرب منها إلى رغده [٦]، وهذه القصة تصوّر لنا حال السيدة فاطمة من التعب وموقف رسول الله ﷺ منها عندما طلبت منه أن يعطيها خادماً من السبي، فقد جاء في مسند الإمام أحمد: «قال علي لفاطمة ذات يوم والله لقد سنوت [٧] حتى لقد اشتكيت صدري، قال: وجاء الله أباك بسبي فاذهبي فاستخدميه [٨]، فقالت: أنا والله قد طحنت حتى مجلت يدي» [٩].

فأتيت النبي ﷺ فقال: «ما جاء بك أي بنية» قالت: جئت لأسلم عليك، واستحيت أن تسأله ورجعت. فقال: «ما فعلت؟» قالت: استحييت أن أسأله. فأتينا جميعاً. فقال علي: يا رسول الله والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداي، وقد جاءك الله بسبي وسعة فأخدمنا، فقال رسول الله ﷺ: والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى [١٠] بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم، فرجعا فأتاهما النبي ﷺ وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطت رؤوسهما تكشف أقدامهما وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما، فثار، فقال: مكانكما. ثم قال: ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟ قالا: بلى. فقال: كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام، فقال: تسبحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبرا أربعاً وثلاثين [١١].

وهكذا كان الهدي النبوي في تربية أهل بيته وأقربائه، لقد أخفقت مساعي السيدة فاطمة وعلي رضي الله عنهما للحصول على خادم، لأن السبي يريد ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يبيعه، وينفق ثمنه

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٦٠) إسناده حسن.
(٢) خميل: القطيفة.
(٣) الأدم: الجلد.
(٤) إذخر: نبات.
(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٦٧).
(٦) انظر: معين السيرة، (ص ٢٥٥).
(٧) سنوت: استقيت.
(٨) أي اسأليه خادماً.
(٩) مجلت يدي: ثخن جلدها وتعجر.
(١٠) تطوى: طوى من الجوع فهو طاو خالي البطن جائع لم يأكل.
(١١) انظر: الفتح الرباني (١٧/ ٢٦٠)، رقم (٩٠).

على أهل الصفة الذين يتلوّون من الجوع، فهم أيضاً من خاصة رسول الله ﷺ مثل علي وفاطمة، والطعام مقدم على الخدمة [١]، ولقد تأثر علي ـ رضي الله عنه ـ بهذه التربية النبوية، ويمر الزمن بالفتى علي فيصبح خليفة المسلمين، فإذا به من آثار هذه التربية يترفع عن الدنيا وزخارفها وبيده كنوز الأرض وخيراتها، لأن ذكر الله يملأ قلبه ويغمر وجوده، ولقد حافظ على وصية رسول الله له وقد حدّثنا عن ذلك فقال: فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن، فسأله أحد أصحابه: ولا ليلة صفين فقال: ولا ليلة صفين [٢]، وكان كما وصفه ضرار بن ضمرة في مجلس معاوية: «... يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما جشب...» [٣].

(١) انظر: التربية القيادية (٣/ ١٠٠).
(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ١٥٩).
(٣) انظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٨٤).